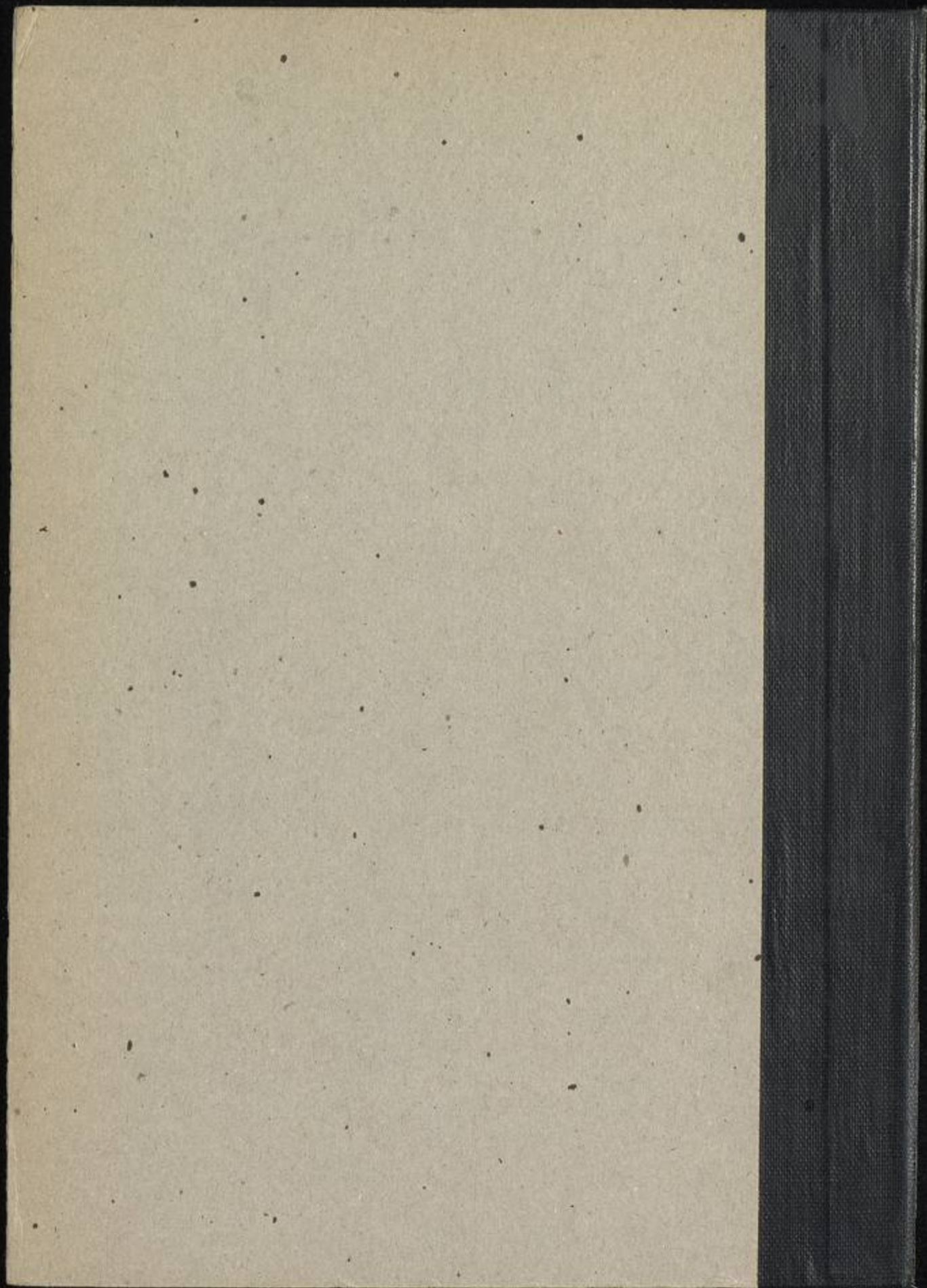




2258
13725
.2

2258.13725.2

Al-Ashtar

Fi shi"r al-nakbah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
-------------	----------	-------------	----------

XXXX JUL 18	XXXX AUG 15		79
------------------------	------------------------	--	----

RETURNED	AUG 9		79
----------	-------	--	----

Princeton University Library

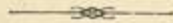


32101 073582643

الدكتور
صالح الأشته
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

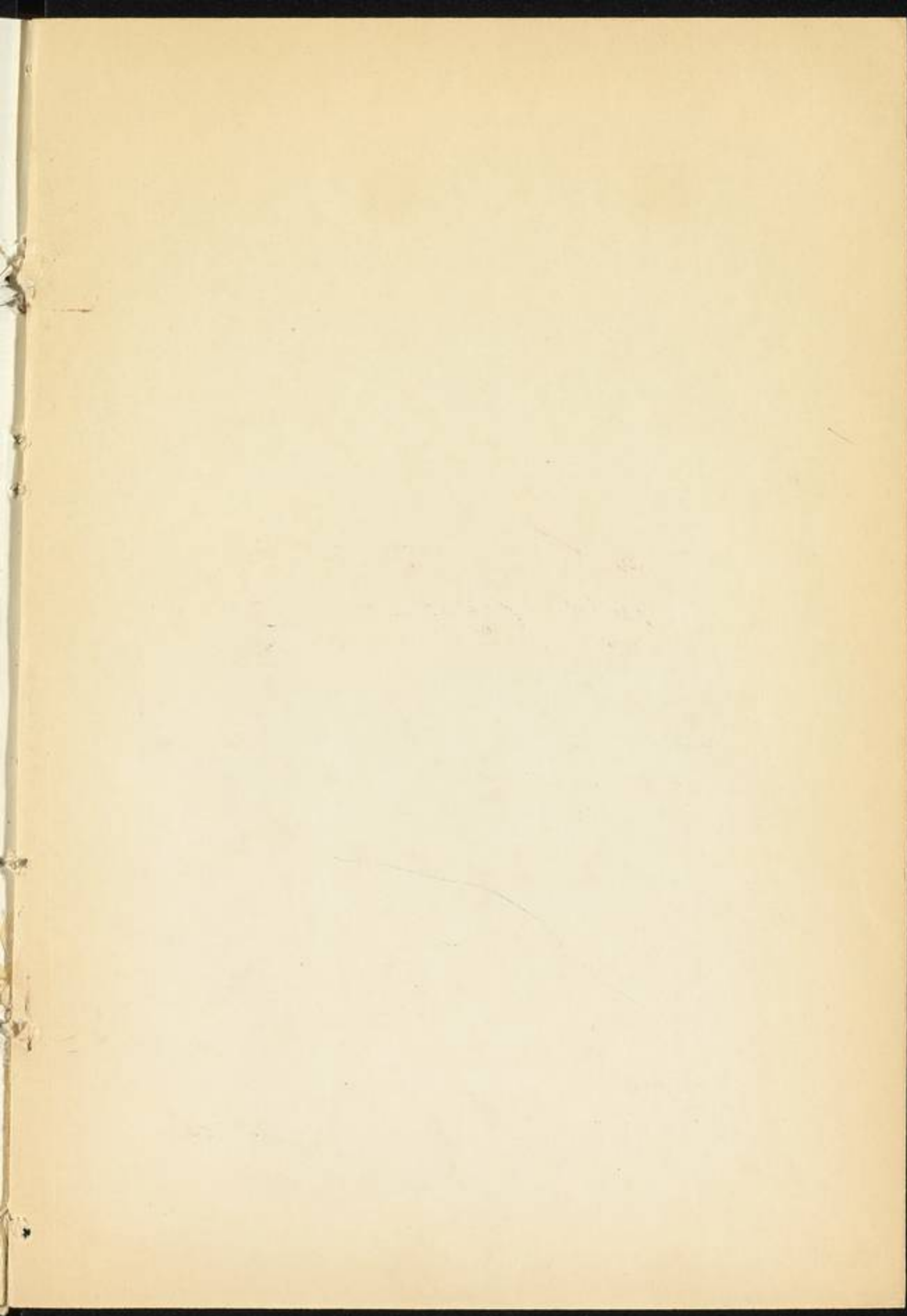
في شعر النكبة

بحث تخطيطي في أصداء
نكبة فلسطين في الشعر
العربي المعاصر



١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م

مطبعة جامعة دمشق



في شعر النكبة



al-Ashtar, Sālih

الدكتور
صالح الأشتهر
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

Fī shi'r al-nakbah

في شعر النكبة

بحث تخطيطي في أصداء
نكبة فلسطين في الشعر
العربي المعاصر

الطبعة الأولى

١٩٦٠ - ١٣٧٩ هـ

مطبعة جامعة دمشق

2258

13725

12

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى الأسود الرابضة في (نعيم
العروب) على الضفة الغوية من
الأردن ..

إليها ، وقد استبد بها الحنين إلى
الوطن المفضوب ، وأرقها انتظار
أذات الفجر لتلي صيحة الزحف
المقدس ..

إليها أهدي هذه الصفحات !

[Faint, illegible handwriting]

[Faint, illegible handwriting]

تمهيد

قبل ثلاثة أعوام ، كنت أطوف مع نفر من طلابي في جامعة دمشق بالضفة الغربية من الأردن ، ودخلنا معسكراً للاجئين قريباً من مدينة الخليل ، فطالعنا وجوه من البؤس تلخص ملامحها المتمردة اليابسة قصة النكبة ، ولفظت الخيام السود من جوفها أشباحاً منهوكة أقبلت تغوص في الطين الى ساحة المعسكر ، وتجمعت في صف متكسر طويل ، لترد للزائر التحية !.

أحسست بالغصة تحرق حلقى ، وبالدمعة تتحجر في جفني ، وأنا
أشهد هذا القطيع الآدمي الذاهل ، وأيقظني من شرودي صوت دافئ
ثائر ، انفجر من قلب أحد اللاجئين ، ينشد شعراً ينبض بالحنين الى
الأرض الشهيدة ، ويموج بالايمان والتصميم على الشأر والعودة ،
ونظرت الى المشردين فإذا الوجوه الصفر الشاحبة تلتقي عند الثأر على
أمل أشاع في أديمها حمرة العزيمة ، وإذا العيون الضائعة الضامئة الى
الانتقام ، يجمعها ذلك الشعر ، فلتقي معه عند هدف واحد ، ويدوي
المعسكر بزئير الغاضبين :

— إننا لعائدون !

وغامت صورة المعسكر أمام عيني الدامعتين ، ورحت أقول في
نفسي : هذا دور الأدب في معركتنا الكبرى ، فقد استطاع الشعر
أن يفجر من أعماق اليأس والموت والظلام شعلة الأمل والحياة ،
وأن يعيد للأشباح الحائرة إيمانها بالنضال والنصر ؛ ومثل هذا الدور
المجيد للشعر يستحق الرصد والدراسة ...

وعدت الى دمشق ، وفي عيني صورة حزينة لأولئك الاخوة
اللاجئين القسابعين في (مخيم العروب) ، وفي أذني صدى راعش
لذلك الصوت الدافئ الثائر ، وعكفت منذ ذلك اليوم على شعر
النكبة ، أجمعه وأضمم أشتاته ، من دواوين الشعراء المعاصرين ،
ومن المجلات الأدبية والصحف ، حتى تجمع لدي منه قدر كاف ،

يصور أبرز ملامح النكبة ، ويشفّ - كما أقدر - عن أهم خصائص
الشعر فيها ، ولهذا أجزت لنفسي أن أنجز هذه الدراسة ، وفي يقيني
أن هنالك شعراً نظّمته النكبة ولم تصل إليه يدي ، وحسب هذه
الدراسة إذاً أن تظل بحثاً تخطيطياً مختصراً ، يشق الطريق ، ويقيم
الصوى ، ويبحث خطأ الباحثين على متابعة السير !

أما المنهج الذي ارتضيته لهذا البحث فقد أملت طبيعة النكبة نفسها ،
ذلك أن النكبة الفلسطينية مرّت في دورين كبيرين ، وصدور قرار
التقسيم هو الحدّ الفاصل بينهما ، ولهذا فإن الدراسة المقارنة لشعر كل
دور ، وأثره في تصوير أبعاد النكبة الواقعية والوجدانية ، منهج سليم
موات ، يُبرز لأعيننا الخط البياني لشعر النكبة وتطوّره ، ويضع
أيدينا على أهم خصائصه ومميزاته ؛ ولا بد لنا قبل أن نأخذ في دراسة
شعر كل دور من تقديم فرش تاريخي ، نير لأعيننا ظلمة النكبة ،
ويرينا كيف وقعت الكارثة ، وكيف تطوّرت مراحلها ، وماهي
أخطاؤها العظمى ونقاط ضعفها ، فتحدد هذا الجانب التاريخي الواقعي ،
يوجّه دراستنا لشعر النكبة ، ويعيننا على تقويم الاتجاهات التي سار
فيها شعراء النكبة .

سنعرض إذاً الحقائق التاريخية لكل دور قبل دراسة شعره ،
وسنتهي بعد ذلك إلى فصل نكشف فيه خصائص شعر النكبة في دورها ..
ورجاؤنا من بعد أن تثير هذه الدراسة لشعر النكبة عزيمة الباحثين

لدراسة الجانب الآخر من أدب النكبة ، أعني النثر بمختلف فنونه ،
من مقالة وقصة ومسرحية ، فالنكبة أعنف تجربة عاشتها أمتنا
العربية في تاريخها الحديث، والأدب الذي انبثق عنها هو أشدّ جوانب
أدبنا المعاصر ارتباطاً بالنفس العربية وتجاوباً معها ، وفي دراسة هذا
الجانب ، ورصد تياراته وخصائصه ، تقويم للاتجاه الرئيسي للفعّال
في الأدب العربي المعاصر كله .

صلاح الأثير

دمشق

الفصل الأول

الدور الأول : النكبة قبل قرار التقسيم

لنكبة العرب العظمى في فلسطين جذور بعيدة، ترجع بنا إلى فجر التاريخ الحديث للأمة العربية، منذ تمطى العملاق الغربي في نهم مسعور، وهو يرى الرجل العثماني المريض نائماً على تراث مغرٍ، من جملة رقعة من الأرض مترامية الأطراف، عامرة بخيرات تُسيل اللعاب ! وهذه الرقعة الغارقة في الظلام والجهل والنوم هي الوطن العربي الذي أغرى نابوليون، فأقبل من الغرب يحدوه الشوق إلى الفتح، ومد يده فأمسك بمصر ومعظم فلسطين، وتهاى لالتهام بقية الوطن العربي، حين صحا « الرجل المريض » من غيبوته، واستطاع بتأييد من الانكليز أن يردّ النسر الفرنسي عن سماء المشرق !

ومرّ زمن .. وحفر اسماعيل القناة بسواعد المصريين ودمهم ودموعهم ، وظنوا أنها ستكون شرياناً يحمل إليهم دم الحياة ، ولكن استهتار الخديوي وحيلة الاستعمار جعلها منها ثعباناً ملتفاً على عنق الوطن العربي : فقد باع اسماعيل القناة سلعة رخيصة بأربعة ملايين جنيه ، وهو الذي أنفق في حفلة افتتاح القناة وحدها نصف هذا المبلغ ، ودفع المليونير اليهودي روتشيلد الملايين الأربعة إلى رئيس وزراء بريطانيا اليهودي دزرائيلي ، فأصبح الانكليز يملكون القناة ، ويحفظون لروتشيلد هذه اليد (اليهودية) التي طوّق بها عنق بريطانيا ، والتي لا يريد من ورائها مناً ولا شكوراً ، غير تأييد بريطانيا الأدبي للصهيونيين بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

وأقبل القرن العشرون ، والأمة العربية لاتزال في سباتها العميق ، لم يستيقظ منها غير نفر قليل ، تلقوا تعليمهم في اوربا ، أو في الآستانة التي كانت يومذاك تصخب بالحركات القومية والاصلاحية ، وقد هالهم تأخر قومهم ونومهم ، فصرخوا فيهم ، ولكن صرخاتهم ضاعت في نفوس ميتة ، فلم يردم ذلك عن عزيمة النضال ، وظلوا يعقدون المؤتمرات ويدعون إلى الاصلاح ، وهؤلاء هم الشباب القوميون العرب الذين باركوا ثورة الشريف حسين على الحكم العثماني ، وأيدوها وقدّموا الضحايا من أنفسهم في سبيلها .

لم يكن تأييد الشباب القوميين العرب للثورة العربية هو كل

ما يدعمها ، فمن وراء الشريف حسين كان نفوذ أهله وعشيرته ، ووعود
بريطانيا له بدعم استقلال العرب ، وذهب (لورانس) الذي كان
ينثره بدون حساب ، ليرفع به « أعمدة الحكمة السبعة » !

وانتهت الحرب الكونية الأولى ، وأخفقت ثورة الحسين ، لأن
آماله الكبيرة لم تحسب لغدر بريطانيا حساباً ، ولأن إيمان الشباب
القومي بثورته لم يكن يتوهج في قلوب عامة العرب ، حتى ولا في
قلوب خاصتهم ، وقد رأى كثير من العرب في ثورة الحسين خيانة
للمسلمين ، فهبوا يحاربونها . ويدافعون عن الخلافة العثمانية ، ويحذرون
من مطامع المستعمرين المتربصين ، ولقد هاجم الشريف حسيناً شاعر
كبير آنذاك ، هو شوقي ، مهاجمة عنيفة ، ورجا الأتراك ألا يلغوا
الخلافة ليتولاهم رجل عاجز أوهى المسلمين بجراحه :

من قائل للمسلمين مقالة لم يؤحها غير النصيحة واح
لا تبذلوا بُرد النبي لعاجز عزُل يدافع دونه بالراح
بالأمر أوهى المسلمين جراحة واليوم مد لهم يد الجراح

ومثل هذا القول من شوقي كان يمثل في ذلك الحين عواطف مصر
وكثير من أهل الشام والعراق والجزيرة ، ولهذا خاب الثائرون ،
واقسم المنتصرون في الحرب مناطق النفوذ في العالم العربي ، واحتل
جيش الانكليز بقيادة (النبي) فلسطين ، وقدم وزير خارجيتهم
(بلفور) سنة ١٩١٧ وعده المشثوم إلى اللورد اليهودي (روتشيلد) : « إن

حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهوداً مسعورة لم تتم لحظة منذ خلافة

كان هذا الوعد خاتمة جهود مسعورة لم تتم لحظة منذ خلافة السلطان عبد الحميد ، فقد حاول الصهيونيون شراء السلطان بالملايين فما أفلحوا ، وعرض زعيمهم (هرتزل) عليه مليون جنيه استرليني ليمنح اليهود امتيازاً بإنشاء مستعمرات يهودية زراعية في فلسطين ، فرفض عبد الحميد عرضه ، وكاد الصهاينة يأسون ، ولكن الحرب الكونية الأولى أنقذتهم من يأسهم ، وذلك أن كلاً من الطرفين المتحاربين كان يطمع في كسب تأييد اليهودية العالمية إلى جانبه ، وكان وعد بلفور ثم فوز الحلفاء بدعم الصهيونية لهم ، فأعانتهم بأموالها ونفوذها في الولايات المتحدة لتخوض الحرب إلى جانبهم حتى نجحت ، ومنذ صدور هذا الوعد تعلقت به آمال يهود العالم الهاربين من الاضطهاد ونقمة الشعوب عليهم ، لجشعهم المادي وتعصبهم الطائفي وخياناتهم وتخريبهم ، فأصبحوا ينتظرون يوم الهجرة إلى فلسطين .

استلم اليهود وعد بلفور كلمات عاطفية مشجعة تغذي آمالهم بالعودة إلى بلد يزعمون أن لهم فيه حقوقاً تاريخية منذ ألفي سنة ! ولكنهم استطاعوا خلال ثلاثين سنة أن يحيلوا الكلمات حقيقة واقعة بجدتهم ودسهم وكيدهم ؛ يقول (وايزمان) زعيمهم : « كانت مهمتي في كل مكان وزمان أن أوضح للصهيونيين أن تصريح (بلفور) ليس إلا إطاراً ،

علينا أن نملأه نحن بجهودنا، والحق أن جهودهم لم تقف، فما يكاد الجنرال (اللني) يدخل القدس حتى يستقبل في مركز قيادته بالرملة اللجنة الصهيونية القادمة لدراسة الوضع في فلسطين ، ثم تنطلق الآلة الصهيونية ، تجمع المال لتشتري الأراضي العربية من أصحابها بأي ثمن ، وتسجلها ملكاً أبدياً للأمة اليهودية جمعاء ، ثم تقسمها قطعاً وتؤجرها المهاجرين القادمين ، وتمنحهم القروض لبناء المساكن ، وتساعدهم على الاستيطان ، في ظل وارف من عطف حكومة الانتداب الانكليزية، وفي أشهر قليلة كانت الأرض الجرداء تتحول الى مستعمرات زاهية وجنات عامرة بالمواطنين المهاجرين، العاكفين على تعلم اللغة العبرية ، والخاضعين لعملية صهر قومي تجمع أشتاتهم ، وتنسق أمورهم وتوحيدها .

ونظّم اليهود أنفسهم في وكالة يهودية ترعاهم وتحمي مصالحهم : تشتري الأرض ، وتبني المستعمرات ، وتفوز بامتياز البحر الميت وثرواته، وتبني لليهود ميناء خاصاً في تل أبيب، لتجارتهم واقتصادهم. لقد بدأت الخيوط الأولى للنكبة تبرز لكل عين، ولكن العرب لم يكونوا الى ذلك اليوم ليحسوا بالخطر الرهيب إحساساً كافياً ، وإذا تحرّكوا فلن يكونوا يقوموا بإضراب أو مشاغبات أو ثورات لا تلتقي عند هدف منظّم مدروس ، وكان الاختلاف بين زعمائهم يقسم جموعهم شيعاً وأحزاباً تتناحر وتتعادى ، واليهود يتابعون تحصين

المستعمرات ، ويستعدون للمعركة المقبلة ، ويستقبلون كل يوم أفواج المهاجرين من كل صوب ، فيزدادون بهم قوة وتنظيماً !
وجاءت الحرب العالمية الثانية لتعينهم على إنشاء المصانع الضخمة ، وتتيح لهم تدريب فتيانهم وتسليحهم ، حتى أصبح لهم في جيش الحكومة فيلق يهودي شارته نجمة داود ! وكانت دعاياتهم الهائلة تبني لهم في كل بلد رأياً عاماً يساندهم ويعطف عليهم ، لاضطهاد النازية لهم وفكها بهم ؛ وعندما أوشكت الحرب أن تنتهي ، كان الرأي العام العالمي المخدوع بهم يناصرهم ، وبخاصة في الولايات المتحدة موطن نفوذهم الأول .

وما كاد النصر يتم للحلفاء حتى أسهمت الولايات المتحدة مع بريطانيا في البحث عن حل للمشكلة الفلسطينية ، وتمت اللعبة الناجحة بوضع القضية بين يدي منظمة الأمم المتحدة ، وأعلنت بريطانيا أنها ستنتهي الانتداب على فلسطين في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ .

كان النفوذ الصهيوني والأميركي يجند القوى في المنظمة الدولية إلى جانب اليهود ؛ وحين كشف الاتحاد السوفيتي عن نواياه أيضاً بتأييد قرار التشريد للشعب العربي من فلسطين ، وقفت الأمة العربية على باب تجربة عنيفة حمراء ، تدعوهم إلى إثبات وجودهم وقدرتهم على الاحتفاظ بكيانهم الأرضي الموروث عن آبائهم ، وكانت الجامعة العربية بدورها السبع يومذاك تقف في الميدان ، ولما لم تستطع دولها

الأعضاء في المنظمة الدولية إثارة الضمير العالمي ، لأن ضميرها هي
لم يتحرك للنكبة ، ولأن الدول العربية التي يجري البترول من تحتها
حبسها البخل والخوف والحياة عن تهديد مصالح الغرب وامتيازاته
فيها ، فقد صدر قرار التقسيم ، ودوت الرصاص في أرض النبوات ،
لتصبغها دماء الجريمة الكبرى .



الفصل الثاني

شعر النكبة في الدور الاول

عرضنا الحقائق التاريخية المخزية التي مهدت لوقوع المأساة القومية العظمى ، وبأن بذلك أن فلسطين كانت في السنوات الثلاثين الأخيرة ، منذ وعد بلفور ، تسير نحو الهاوية المرعبة سيراً حثيثاً أعمى ! غير أن صوت الشعر كان يدوي في أرجاء العالم العربي كله ، يوقظ النائمين ، ويحذر الغافلين ، وينذر بالخطر القريب الداهم ، وكانت أقوى الأصوات وأعماقها ينبعث من قلب شاعر فلسطيني كبير ، أدرك بوعيه وبصيرته أن ليل المحنة قريب ، ورأى قومه لاهين غافلين ، فصرخ في النائمين ، يهز ضمائرهم ، ويقوي عزائمهم ، ويصور لهم المستقبل الأسود الرهيب ، إلى أن تظاهر عليه اليأس والداء فصرعاه عن عمر

الزهر والريبع ، ولما يتجاوز السادسة والثلاثين ، ورحل عن دنياه
قبل أن يشهد بعينه مصرع فلسطين !

ذلك شاعر فلسطين الكبير ابراهيم طوقان ، المولود في نابلس
سنة ١٩٠٥ ، وقد أسهم بلده والقدس والجامعة الاميركية في بيروت
في تكوين ثقافته ، ثم انطلق ولما يبلغ الخامسة والعشرين ليتولى
التدريس في الثانويات فالجامعة الأميركية ، ثم أصبح مديراً للبرامج
العربية في إذاعة فلسطين سنة ١٩٣٦ ، فلاحقه الدسائس ، واثارت
الصهيونية على أحاديثه الاذاعية الموجهة توجيهاً عربياً قومياً سليماً ،
فأقضي عن العمل ، ليلتحق بالعراق ، ويعود الى مهنة المعلم ، فأرهبه
بذلك نفسه ، وعأوده المرض فردّه إلى نابلس ليطوي فيها صفحة شبابه .

ونقأب اليوم ديوان ابراهيم طوقان فيطالعنا منه أنين قلب جريح ،
يقص في تفصيل حزين حكاية النكبة في دورها الأول ، مغمسة بالألم
واللوعة والخوف على مستقبل وطنه وأمته ، وتلتهب في جوانحها
أنفاس من الحماسة الحزينة والرجاء الكئيب ، ترتعش كالنار أمام كل
فدائي وشهيد ، فطوقان كان في شعره الوطني الذي يؤرخ نشأة النكبة
صاحب رسالة . لقد أحب طوقان وطنه ومجد فيه الجمال والبهاء :

موطني الجلال والجمالُ والسناء والبهاءُ في رُباك
والحياةُ والنجاةُ والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالمًا منعمًا وغانمًا مكرمًا

هل أراك في علاك

تبلغ السماك

موطني

ومن قلب الشاعر المحب لوطنه تنطلق النجمة العارمة على المحتل
المستعمر، في سخرية مرة بالانكليز ووعدوزيرهم (بلفور) لليهود:

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة وختمنا لجندكم بالبسالة

وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً كيف نفسى انتدابيه واحتلاله

وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتم وعد بلفور نافذ لا محالة

كل أفضالكم على الرأس والعي ن وليست في حاجة لدلاله

ولئن ساء حالنا فكفانا أنكم عندنا بأحسن حاله

غير أن الطريق طالت علينا وعليكم فمالنا والإطالة

أجلاء عن البلاد تريدون ن فنجلو أم محقنا والإزالة

ومن (لطف) المحتل وفضله أن أصبح العربي يرسف في الجور

والفقر والفساد ، وأصبح المهاجرون اليهود كالطوفان يهدّد

العرب بالفناء :

منذ احتلتم وشؤم العيش يرهقنا فقراً وجوراً وإتعاساً وإفساداً

بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم وكان وعداً تلقيناه إيعاداً

وانصرف طوقان إلى ضمير الشعب ، ينفخ فيه روح المقاومة

والجهاد ، ويتغنى ببطولة كل فدائي يتلظى قلبه بين جنبيه بالغاية النبيلة
الكبرى ، أما فمه فهو :

صامت لو تكلم	لفظ النار والدماء
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم أبكماً
وأخو الحزم لم تزل	يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظلاً
وبلاداً أحسبها	ركنها قد تهدما
وخصوماً يغيهم	ضجت الأرض والسما

هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلاً من شجاعته !

حتى إذا سقط الفدائي شهيداً ، كان غناء طوقان اللحن الشائر
الذي يشيعه الى أبواب الخلود ، ويجعل اسم الشهيد أغرودة البطولة
الهازجة في فم الزمن :

عبس الخطب فابتسم	وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى	ثابت القلب والقدم
نفسه طوع همة	وجمت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا	ومن جوهر الكرم

لم يُشيعَ بدمعةٍ من حبيب ولا سكنٍ
ربما أُدرج التراً ب سليماً من الكفن
لا تقل أين جسمه واسمه في فم الزمن
أرسل النور في العيو ن فما تعرف الوسن

وكان طوقان يرى تدفق آلاف المهاجرين اليهود على فلسطين ،
يتسللون إليها من البحر ، بالتهريب حيناً ، وباسم السياحة حيناً ، وعين
السلطة الانكليزية غافلة أو متغافلة ، والعرب نائمون :

يهاجر ألفٌ ثم ألفٌ مهرباً ويدخل ألفٌ سائحاً غير آيب
وفي البحر آلاف كأن عبابه وأواجه مشحونة في المراكب
بني وطني هل يقظةٌ بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب

ومن أين لبني وطنه أن يستيقظوا ، وكثير منهم يخطف ذهب
اليهود أبصارهم ، فيبيعونهم أرضهم ، وهم لا يدرون أنهم يرتكبون
الجناية الكبرى ، وأنهم لم يبيعوا أرضاً وإنما باعوا لعدوهم المتربص
بهم وطناً :

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً بالمال ، لكننا أوطانهم باعوا
قد يُعذرون لو أن الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
يابائع الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تعلمت أن الخصم خداعٌ
لقد جنيت على الأحفاد والهفي ! وهم عبيدٌ وخدّامٌ وأتباعٌ
وغرّك الذهبُ اللّماع تحرزه إن السراب - كما تدريه - لّماع

فكّر بموتك في أرض نشأت بها و اترك لقبرك أرضاً طولها باعُ
وكان طوقان يحذر المخدوعين بالثراء الموقوت من ثمن ما باعوا
من أراضٍ ، ويتنبأ - وياحسرة القلب لصدق ما تنبأ به - أن احتلال
اليهود لفلسطين آتٍ ، وأن يوم الرحيل عن الديار قريب :

هيهات ذلك إن في بيع الثرى فقد الثراء
فيه الرحيل عن الربو ع غداً إلى دار الفناء
فاليوم أمرحُ كاسياً وغداً سأنبذُ بالعرأ
وأكثر ما كان يروع طوقان ما يراه من خيانة زعماء البلاد لقضيتها ،
فقد كان هؤلاء الزعماء سماسرة البلاد ، يخدعون الشعب ويخدرونه
بمعسول اللفظ ، ويمزقون بأهوائهم وخلافاتهم وحدته ، ليشغلوه
بالتناحر فيما بينه ، وينصرفوا في غفلته إلى بيع البلاد :

أما سماسرة البلاد فعصبةٌ عارٌ على أهل البلاد بقاؤها
هم أهلُ نجدتها وإن أنكرتهم وهم - وأنفك راغم - زعماءُها
وحماتها ، وبهم يتم خراؤها وعلى يديهم بيعها وشرؤها
ويحاول طوقان أن يكشف للشعب الغافل عن وجه الزعامة
وخياناتها القناع :

حبّذا لو يصومُ منّا زعيمٌ مثل (غندي) عسى يفيد صيا مه
لا يصمُ عن طعامه ، في فلسطين ن يموتُ الزعيمُ لولا طعامه
ليصمُ عن مبيعه الأرض يحفظ بقعة تستريحُ فيها عظامه !

ويصرخ طوقان في أذن الشعب يحذّره من خيانات هؤلاء الزعماء،
فالوطن قد ابتلي بهم، وهم عصاة من الدالّين، لا يخافون الله في وطنهم :
وطني مبتلى بعصبة دلالين لا يتقون فيه الله !
ولكن الشعب غافلٌ نائمٌ مأخوذٌ بحماسة زعمائه الخونة :

فإلى متى يا ابن البلا دِ وأنت تؤخذ بالحماسةُ
وإلى متى زعماء قو مك يخلبونك بالكياسةُ
وايكم أحطنا خائناً منهم بهالات القداسةُ
وكان طوقان يهز بصرخاته أصناماً حجرية لا تتحرك ، ولا تبالي
بمصائرهما :

أمامك أيها العربي يومٌ تشيبُ لهوله سودُ النواصي
وأنت كما عهدتكَ لا تبالي بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلحسه الأذاني وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رَحْبُ القصور غداً بياق لساكنها ولا ضيقُ الخصاص
ولم يكن طوقان يُخفي تشاؤمه ، وهو يرى الشقاق يمزق
وحدة الأمة ، فيعلن - والحسرة تدمي قلبه - يأسه من الخلاص :

والله لا يرجي الخلاصُ وأمركم فوضى وشملُ العاملين ممزقُ !
وهكذا أدى طوقان رسالته الوطنية خير تأدية ، فدعا
بصدق ، وحذر وأنذر ، وصور الاحلام وبكى الآلام ، ولم
يصانع المستعمرين ، ولم يجامل زعماء ، ولم يسكت عن خائن ، وخلف

في ديوانه قوله حق دافعة تفصل أسباب النكبة، وتحدد تبعه المسؤولين، فكان بكل ذلك شاعر النكبة الأول في هذا الدور، طغى بقوة شاعريته، وصدق وطنيته، وعمق انفعالاته الشعرية، على أكثر من عاصره من شعراء النكبة، ولعل من رحمة الله بطوقان أن يقبضه إليه، فلا يتاح له أن يشهد شيئاً من الدور الثاني من النكبة، ولو عاش لرأى قومه مشردين في كل أرض، هائمين على وجوههم في الدروب المظلمة، وقد خلفوا وطنهم المغصوب نهياً لحفنة من شذاذ الآفاق، وأسلموا أنفسهم إلى البؤس والحرمان والعراء...

يجب ألا ننسى أن الشعراء العرب من كل قطر أسهموا في غناء الدور الأول من النكبة، ولكن شعراء فلسطين هم الذين نهضوا بالخط الأول، فكان صوته ينطلق من أرض النكبة، يحكي أحداثها ويرسم أبعادها، ويستثير نخوة العرب في كل مكان لمد يد العون إلى هذا الجزء المنكوب من أرض العرب.

إلى جانب هذه الصورة التي رسمها طوقان للنكبة في دورها الأول لا بد من إبراز بعض الملامح المتميزة التي خطها شعراء آخرون، وسنقتصر على عدد منهم، يمثلون في غناء النكبة اتجاهات أو تيارات، ويصدرون فيها عن مذاهب وعقائد يؤمنون بها ويدعون إليها.

كان إبراهيم طوقان سليل أسرة اقطاعية كبيرة في نابلس، وعلى الرغم من نفور الشاعر من الاقطاعية، ونضاله الدائب ليكسب لقمة عيشه

بكده طوال حياته ، فإن اللون الاشتراكي لم يصبغ غناؤه القومي لأحداث النكبة ، وهنا يأتي دور شاعر فلسطيني آخر كانت مأساة بلاده تعيش في أعصابه الثائرة ، فتدفق على فمه شعراً يسدر بالأم والقوة والرغبة في الاستشهاد .

ولد الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود عام ١٩١٣ في (عنتابا) بين نابلس وطولكرم ، من أسرة فلاحين تزرع الارض وتمنحها الجهد والعرق ، ثم لا تفوز منها بغير العيش الكفاف ، ولهذا لم يستطع عبد الرحيم محمود أن يزيد على تحصيله الثانوي في طولكرم ونابلس شيئاً ، فترك الدراسة ليعمل شرطياً ثم معلماً ؛ وفي سنة ١٩٣٦ ألقى بنفسه في أتون المعركة ، فطاردته السلطة ، فالتجأ إلى العراق فترة عاد بعدها إلى فلسطين ؛ وفي سنة ١٩٤٨ نجده متطوعاً في جيش الانقاذ ، يخوض المعارك ، ويستشهد في واحدة منها عند قرية الشجرة ، مخلفاً صبية ثلاثة وزوجاً لم تستطع أعصابها أن تحمل الفاجعة ، فجنّت لمقتله ..

هذه الخطوط السريعة من حياة الشاعر الثائر تنعكس في شعر عبد الرحيم محمود ، فإذا هو بطل مغوار ، يحمل دوماً روحه على يده ويقتحم غمرات الموت غير هيّاب ولا وجل :

سأحمل روحي على راحتني وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرّ الصديق وإمّا ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى

لعمرك إني أرى مصرعي ولكن أغدّ إليه الخطا
أرى مقتلي دون حقي السليب ودون بلادي هو المبتغى
يلدّ لأذني سماعُ الصليل ويهيج نفسي مسيل الدما
وجسم تجندل في الممعان تناوشه جارحات الفلا

...

لعمرك هذا ممات الرجال فن رام موتاً شريفاً فذا
أخوفاً ! وعندي تهون الحياة وذلاً ! وإني لربّ الإبا
بقاي سأرمي وجوه العداة وقلبي حديد وناري لظي
وعندما زار الأمير سعود فلسطين سنة ١٩٣٦ ألقى الشاعر بين
يديه قصيدة تفيض بالألم والشكوى ، وسأله فيها :

المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودّعه !
وفي شعر عبد الرحيم محمود نغمة اشتراكية مؤمنة ، وفي جوانحه
روح فلاح ذاق من جور الإقطاع في وطنه كل مرارة ، وبلا بنفسه
عوز الفقير وحاجته ، فأرسل من أغوار قلبه هذه الصرخة المتمردة
الناثرة على الوضع الاجتماعي الفاسد :

بغى في قسمة الأرزاق ناسٌ وقالوا : هكذا قسم الإله !
وقالوا : إن أحب الله عبداً برزقته المقدرة ابتلاه
دعونا ، إن يكن هذا صحيحاً ير الفقراء معبوداً خلاه
لقد وصفوا الإله بشرّ ظلم بما قالوا ! تنزه في علاه

وهناك شاعر فلسطيني ثالث ، أسهم في غناء النكبة بدوريتها ،
وهو اليوم لاجئ في الاقليم الشمالي ، ولا يزال يوالي إنشاد أغانيه
الحزينة الرائعة ، يبت فيها شوقه للهفان إلى وطنه المغصوب .

ولد عبد الكريم الكرمي ، المعروف بأبي سامي ، في طولكرم
عام ١٩٠٧ من أسرة شهرة بالعلم والوجاهة ، فأبوه الشيخ سعيد الكرمي
كان من أعلام فلسطين ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد
أتيح لأبي سامي أن يتم تحصيله الثانوي في دمشق قبل دراسته للحقوق
في القدس ، وعمل بعد ذلك محامياً في حيفا إلى سقوطها عام ١٩٤٨ ،
فتنحى منها إلى عكا ، ثم اختار دمشق دار إقامة له ، فعاد إلى البلد الذي
شهد من قبل ذكريات صباه ، ليعمل مدرساً في ثانوياته .

كان أبو سامي يصدر في شعره ، في الدور الأول من النكبة ، عن
عقيدة يسارية حائرة ، تهيج في نفسه الثورة على أصحاب المال والسلطان ،
وأشهر شعره في هذا الدور قصيدته الدالية التي يهجو فيها ملوك العرب ،
ويندد بموقفهم المخزي الذي شل حركة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ،
وهذه القصيدة نموذج لشعر أبي سامي الشاعر الذي تلهب النعمة العارمة
أنفاسه ، ويؤجج الحق قوافيه :

انشر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يرددها الزمان ن غداً إلى أبد الأبد

قالوا : الملوك ! وإنهم لا يملكون سوى الهبيد^(١)
 دكت عروش زينو ها بالسلاسل والقيود
 سحقاً لمن لا يعرفو ن سوى التعال بالوعود
 وأذلهم وعد اليهود د ولا أذل من اليهود
 ومن حم القصيدة اللاهبة يرسل أبو سامي لغناته إلى الملوك، واحداً
 إثر واحد ، وفي مقدمتهم ابن السعود :

إني لأرسلها 'مَجَّأً- جلة إلى الملك السعودي

ثم إلى صاحب عمان ، الملك عبد الله :

وأبو طلال في ربا عمان يحلم بالحدود
 أقعد فلست أخا العلا والمجد وانعم بالقعود
 المجد أن يحمي الرصا ص على المدى حمر البنود
 واحكم على الشطرنج ليد س على الفياق والجنود

ثم إلى الإمام اليمني في عاصمته السعيدة :

عرج على اليمن السعيد د وليس باليمن السعيد
 واذكر إماماً لا يزا ل يعيش في دنيا ثمود

ثم إلى بغداد والعرش الهاشمي فيها :

واعطف على بغداد واذ دب عرش هرون الرشيد

حتى إذا جاء دور فاروق، ولحيته التي كان يرسلها يومذاك، ليضال
بها شعبه، صرخ الشاعر به :

دع سبحة التضييل واخـ لمع عنك كاذبة البرود
أحسبت أن الملك بالة سديح يُطلب والورود
وكان أباسلمى يرى أن هذه اللعنات الفردية لا تشفى غيظه ،
فيمد يده بهذه الصفعة الجماعية :

إيه ملوك العرب لا كنتم ملوكاً في الوجود
هل تشهدون محاكم الـ ففتيش في العصر الجديد
قوموا اسمعوا من كل نا حية يصيح دم الشهيد
قوموا! انظروا الأهلين يـ ن الوعد ضاعوا والوعيد
ما بين ملقى في السجو ن وبين منفي شريد
أو بين أرملة تول ول أو يتيم أو فقيد
قوموا انظروا الوطن الذي ح من الوريد الى الوريد
ويلتفت أبو سلمى الى الشعب ، بعد أن نفّض يديه من الطبقة
الحاكمة في البلاد العربية ، فيحاول أن يوقظه ، ويطالبه جهره بالاتجاه
إلى اليسارية :

يا أيها الشعب النـيـ لـ أمنت من شر العثار
أنت الذي تهدي السيـ لـ من اليمين الى اليسار

وبعد اليسارية تكون الثورة ويتم التحرير :

يا من يُعزوت الحمى ثوروا على الظلم المبيد
بل حرروه من الملو ك وحرروه من العبيد

وفي هذا الدور اتجاه يميني في غناء النكبة ، كان أصحابه يؤمنون بأن السياسة الاستعمارية في فلسطين حرب صليبية جديدة ، ومن يمثلون هذا الاتجاه الشاعر الاسلامي برهان الدين العبوشي ، وكان لسان حال جمعية الشبان المسلمين في فلسطين ، ومن جيد شعره قوله في قصيدة (الوطن الميسع) :

لهني على الليث المهدد غابُه ما كان أجدر لو يموتُ بغابه
والحر يدفع عن حماه بسيفه فإذا تحطم سيفه فبنا به
فانمش للموت الزوام كما مشى جيش النبي بشيبه وشبابه

وهكذا كان شعر النكبة في دورها الأول ، على الرغم من اختلاف مشارب قائله ، وتعدد التيارات التي يصدر عنها ، يدعو الشعب دعوة واحدة الى القوة والتعبئة والنضال ، لانقاذ الوطن ، والصمود أمام الغزو الصهيوني والاستعمار الغربي .. كل ذلك قبل أن يُقر التقسيم وتقع الكارثة العظمى .

★ ★

الفصل الثالث

الدور الثاني : النكبة بعد قرار التقسيم

عندما أوصت اللجنة الانكلو أميرية بتقسيم فلسطين ، ضج عربها وأرغت الجامعة العربية وأزبدت ! وتبارت حكوماتها في إرسال برقيات الإنذار والتهديد ، وصدر قرار التقسيم ، والتقى مجلس الجامعة لدراسة الوضع الجديد ، وانتهى إلى أن يوصي بإرسال جيش للانقاذ إلى فلسطين من ثلاثة آلاف عربي متطوع ، بعد أن عرف أن لدى اليهود ما لا يقل عن سبعين ألفاً من المجندين المسلحين !

وتكون جيش الانقاذ المأمول ، وكان خليطاً من أقلية مخلصنة مستشهادة ، وأكثرية مرتزقة لاهية ، وقيادة هزيلة الخبرة والتنظيم والتجهيز والإيمان ! وعندما كان هذا الجيش يدخل فلسطين ، كانت الأسر

الفلسطينية الغنية تنزح الى مصر وسورية ولبنان ؛ وتوالى الضربات على جيش الإنقاذ فشلت مافيه من قوة ، والدول العربية تتظاهر أمام شعوبها بالاستعداد والاستبسال ، ولم تقم بعمل عسكري حاسم ؛ وانتهم اليهود الفرصة فشنوا عدواناً وحشياً مقصوداً على ديرياسين ، فانتهموا الأعراض ، وذبجوا السكان ، ونجحوا في نشر الذعر والخوف ، وأصبح هم العربي في فلسطين أن ينجو بنفسه وأهله ، وتدفت أمواج اللاجئين على الضفة الغربية من الأردن ، والبلاد العربية المجاورة ، وبهذا السلاح الماحق من الرعب الجماعي وانهميار الأعصاب أجلى اليهود العرب عن طبريا وحيفا ويافا وعشرات المدن والقرى ، حتى إذا أقبل الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ ظهر للعالم أن المجتمع اليهودي في فلسطين أصبح دولة قائمة ، وأن المجتمع العربي فيها بدأ يلفظ أنفاسه ، ويتحول الى قطعان مذعورة من الغرباء اللاجئين الهائمين على الدروب ! أما الذين لم يبرحوا يقاومون ، فلم يكن لديهم من أمل سوى تدخل الجيوش العربية لاسترداد فلسطين !

عند ذلك أعلنت الدول العربية السبع ، وبضغط من شعوبها وحماستها ، الحرب على اسرائيل ، في الدقيقة الاولى من اليوم الخامس عشر من أيار ، ودخلت فلسطين بعض الفرق العسكرية العربية ، للقيام « بنزعة حرية » في الأرض المقدسة .

كان في رأس كل حاكم عربي هدف لا ينام له الليل ، ومطامع يأمل

أن يجنيها من وراء المعركة (الرابطة !) التي أمر جيش بلاده بأن
يخوضها :

أما فاروق فكان يريد أن يسترد احترام شعبه له ، بعد أن
فقدته بمبازله وسوء أخلاقه وتصرفاته ، ويريد أن يملأ جيبه بالأرباح
المستورة من صفقة الأسلحة الفاسدة ، ويريد أن يحتفظ بالزعامة في
الوطن العربي .

وأما ابن السعود فكان يريد أن يُلهي المطالبين بإلغاء
امتيازات الزيت الاميركية في بلاده ، ليظل ثمن زيت الله ينصب
(دولارات) لاحصر لها في جيبه العامر ، ولن يضيره بعد ذلك أن
يرسل عدداً من البدو المسلحين للقتال مع الجيش المصري .

وأما عبد الله فكانت تلتهم في عينيه آمال نهمة ، فشوقه الى ضم
الضفة الغربية بين ذراعيه شوق قديم ، ويؤكد العارفون أنه اجتمع
بزعماء اليهود ، ومن بينهم غولدا مايرسون (التي ستصبح وزيرة
للخارجية الاسرائيلية) واتفق معهم على قبول قرار التقسيم ، وتعمد
لهم بأن يقف الجيشان الأردني والعراقي الزاحقان على فلسطين عند
الحدود التي رسمها قرار التقسيم ^(١) !

(١) تفصيل هذه الحيانة في كتاب (النكبة) لعارف العارف ج ١ ص
١٩٧ ، وفي مذكرات قائد القدس عبد الله التل صفحات سود أخرى نقص
بإسهاب أخبار هذه الحيانة وغيرها ...

وأما عبد الإله ، الوصي على العرش العراقي ، فكان يريد أن يدعم
آمال عمه عبد الله في توسيع رقعة عرشه الهاشمي ، وأن يتظاهر
للشعب العراقي بنصرة فلسطين ، بإرسال فرق من الجيش العراقي الى
الأرض المقدسة !.

وأما الإمام اليميني السعيد فلم يجد من شعبه حماسة واندفاعاً ،
فاكتفى — أعزه الله — بالدعوات الصالحات بالنصر المؤزر للجيوش
الزاحفة !

وأما لبنان الجبل الأشم فلا يستطيع أن يتخلف عن تمثيل
دوره السباعي في المسرحية الحربية ، وهو جار فلسطين المستغيثة !
وأما سورية — أخيراً — فقد كانت محنة فلسطين محك الوعي
القومي الناضج فيها ، وكانت القلوب المؤمنة تضطرم عزيمة وحماسة ،
ولكن الحماسة وحدها لا تكفي ، فالجيش السوري الباسل كان صغيراً ،
ابن سنتين أو ثلاث ، تنقصه الكثرة والمعدات والأسلحة ، وإن لم
تنقصه الرغبة في التضحية والاستشهاد .

وهكذا زحفت الجيوش العربية على فلسطين ، ومرّ أسبوع
وأسبوع ، والجيوش العربية تقتحم ما أقرّ التقسيم إبقاءه عربياً من
الأرض الشهيذة ، دون معارك تذكر ، ويؤكد العارفون أنه لو لا
هجوم سلاح الجو المصري على المراكز اليهودية ، وهجوم الجيش
السوري الفتى على سمخ واحتلاله مشمار هاياردن ، لما كان في التمثيلية

الحرية مشهد جدي واحد يوهم الشعوب العربية أن القتال تدور
رحاه في فلسطين !.

لقد كانت الجيوش العربية متفرقة متخاذلة ، قليلة العدد ، هزيلة
الخبرة ، يعوزها التدريب والتنظيم ، ولم تكن هذه الجيوش معدة
لخوض معارك حرية، بل كان أكثرها فرقاً أعدّها الملوك لاستقبالهم
واحتفالات الأعياد ، والقيام (بالاستعراضات) في شوارع العواصم
العربية ! أما السلاح فكان فضلات عتيقة فاسدة ، خير ما فيها طيارات
لا مدافع لها ، ومدافع لا قنابل لها ، وقنابل لا تنفجر ! وعلى الجيوش
العربية أن تقاوم بهذه الأسلحة عدواً منظماً مدرباً ، قد عبأ جميع
قواه البشرية والمادية والعقلية والسياسية ، وفي يده أحدث الأسلحة
وأفكرها وأمضاها !

لهذا كله كان على الدول العربية أن تقبل الهدنة الاولى لمدة شهر ،
وقد تمكن اليهود خلاله من أن يعززوا قواهم ، والدول العربية تجتمع
حكوماتها المجرمة في مشاورات مسرحية لا طائل منها ، حتى إذا
عادت الحرب برز الخلاف بين العرب أنفسهم ، فاختلف الهاشميون
وغير الهاشميين في قضية تأليف حكومة فلسطينية ، وانسحب الجيش
الأردني من اللد والرملة ، وتبعه الجيش العراقي ، وخلا الميدان بذلك
أمام القوات الاسرائيلية ، فتقدمت واحتلت عدة مدن ومئات القرى ،
ومساحات واسعة من الأرض العربية ، وهرب السكان العرب هائمين

على وجوههم ، وقد باغتهم العدو في دورهم ، وتفرقوا مذعورين ، يطلبون النجاة بأنفسهم ، وخلفوا في أرضهم كل ما يملكون ، وأقبلوا يلتجئون الى المناطق العربية ، بثيابهم التي على أجسادهم ، وازداد عدد اللاجئين عشرات الألوف ! .

ازداد صوت الدول العربية ضعفاً بتفرق كلمة حكوماتها ، واضطرت الى قبول قرار مجلس الأمن بوقف القتال بعد عشرة أيام من استئنافه . .

وتفاقم الخلاف بين الحكومات العربية ، فقررت الجامعة العربية انشاء حكومة عموم فلسطين في غزة ، لتقف أمام أطماع الملك عبد الله ، وأجاب هذا على قرار مجلس الجامعة بضم الضفة الغربية من الأردن الى الشرقية ، وأعلن وحدة المملكة الأردنية العتيدة ! وبذلك فاز عبد الله من الغنيمة بنصيب الأسد ! .

ومضت أيام الهدنة الثانية ، والحكومات العربية سادرة في تناحرها وشقاقها ، واغتم اليهود الفرصة ، فجعمعوا قواهم وهاجموا بها الجيش المصري ، واستولوا على النقب ، وتمكنوا من محاصرة فرقة كبيرة من الجيش المصري في الفالوجة .

وفي خندق من خنادق الفالوجة المحاصرة كان ضابط مصري شجاع ير بض مع حفنة مؤمنة من جنوده : في عينيه العميقتين ومضات العزم ، وفي قلبه الكبير تتوهج الشعلة المقدسة ، ذلك لأنه أدرك بعمق

ذاته ، ووعى بدقة طبيعة النكبة منذ أبعاد أدوارها ؛ ومن قلب هذا الضابط المصري المحاصر في الفالوجة ستنطلق الشرارة المنقذة ، فتطيح بالعروش وتحطم أذنانها ، وتثور لكرامة الأمة العربية المهدورة ، ولجيشها التي غرر بها لإرضاء النزوات والأطماع .

يقول الرئيس جمال عبد الناصر في رسالته « فلسفة الثورة » وهو يتحدث عن بذور الثورة في نفسه ، محدداً دور النكبة والحصار في الفالوجة في تفجير براكين الثورة في قلبه : « لم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر ، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل .. وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا : كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروّعاً ، وكثيراً ماقلت لنفسي : هانحن أولاء هنا في هذه الجحور محاصرون ، لقد غرر بنا ، دفعنا إلى معركة لم نعد لها ؛ لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ! وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري ، كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود إلى مصر ، وأقول لنفسي : هذا هو وطننا هناك ، إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير ! ... »

وهنا كان موقف الحكومات العربية حرجاً أمام شعوبها ، فراحت

تخدع الجماهير لتخفي عنها الحقيقة السوداء ، وترهبها الهزيمة نصرأوالعار
مجداً والذلّ فخراً ! ثم بدأت هذه الحكومات ، صاغرة ذليلة ، تعقد
الهدنة مع اسرائيل ، حكومةً بعد أخرى ، وتخدّر شعوبها بالتهديد
بالجولة الثانية ، وراحت كل دولة تنصلّ من جريمتها ، وتحمل
الأخرى مسؤولية النكبة والانكسار والهزيمة ، وتأمل أن ينسى
التاريخ والضمير العربي جنایة الحكام ودورهم القدر في كارثة العرب
القومية العظمى .

★ ★

الفصل الرابع

شعر النكبة في الدور الثاني

لئن كانت نكبة فلسطين أعنف تجربة قاستها الأمة العربية في العصر الحديث ، فإنها أيضاً أعظم تجربة يعانها الأدب العربي المعاصر ، ذلك أن النكبة قدمت لكل كاتب وشاعر ، من مآسيها وويلاتها وأهوالها ، مادة للقول لا تنتهي ، وكيف تنتهي ومليون من المشردين اللاجئين لا يزالون إلى اليوم هائمين على وجوههم ، غرباء بئسين ، تروى وجوههم الشاحبة ونظراتهم اليابسة ، قصة النكبة وأحداثها ، وتشكو أجسامهم المعلقة برد الكهوف والخيام البالية ! بل كيف تنتهي والقزم اليهودي لا يخفي مطامعه النابجة لتحقيق خريطة التوراة : « وهبتك يا إسرائيل مابين دجلة والنيل ! » ..

لقد كان حظ الشعر في غناء النكبة في دورها الثاني ضخماً حقاً ،

فما من شاعر في العالم العربي كله لم تدفعه ربة شعره الى بكاء الكارثة العربية في فلسطين ، فدّل الشعر بذلك على أن النكبة الفلسطينية ليست اقليمية محدودة ضيقة ، بل هي كارثة قومية هزت الضمير العربي في كل مكان من أرض العرب ، وهاجت وجدانه الشاعر ، فانطلق الغناء من كل فم ، ولهذا لم يكن باستطاعتنا أن نعرض لكل شاعر أسهم في القول في النكبة ، وحسب دراستنا أن نظل بجشاً تخطيطياً يعرض الخطوط الكبرى في النكبة ، ويرسم بإيجاز أصداها في الشعر العربي المعاصر .

يبدأ العرض الشعري المتسلسل لمشاهد النكبة في دورها الثاني منذ اليوم الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ ، ولهذا اليوم البغيض ذكريات سود عند شعراء النكبة ، وهذه صرخة واحد منهم ، هو الشاعر عيسى الناعوري ، يرسلها لاعناً ذلك اليوم الأسود ، معدداً ضحاياه ، مندداً بأهواله :

ض وأسوأ الأيام ذكرى	يالغنة الزمن البغي
رُتْمَتُهَا الأيامُ قهراً	هذي ضحاياك الكثا
وتلوك مسغبةً وصبرا	تقضى الحياة على الطوى
ل وأبغض الأيام طراً	ياصورة الجبن الأذ
صار اتخاء العرب غدرا	لا كنت من يوم به

وكرامة الشعب العريد بق هدرتها، ومضيت، هدرًا
ومنذ ذلك اليوم الأسود البغيض بدأت «المهزلة العربية» كما يسميها
بحق الشاعرُ الفلسطيني محمود الحوت ، فقد أطبقت الدول السبع على
فلسطين ، لتطرد منها العصابات الصهيونية ، وتلقي بها في البحر ، ولكنها
طردت عرب فلسطين وشردتهم من ديارهم لتقدمها سكنًا للمعتدين
الآثمين . يقول محمود الحوت :

أُطبق «السبع» إطباقًا لتخرجها وتُسكن المعتدي أزهى مغانيها
فهل سمعتم بحربٍ كالتى نكبوا بها فلسطين واجتاحوا أهاليها
وشتوهم ضحايا هائمين على وجوههم بعد تركين العدى فيها
وعاد كلُّ الى الأوطان ترهقه رسالة كان في (الأقصى) يؤديها
لقد عادت الجيوش العربية من فلسطين ، بعد نجاح « المسرحية
الحربية » كما يصورها الشاعر خليل زقطان :

وهنا انظري تلك الجيـو ش السبع والعُدد القوية
أمت ميادين النضا ل تصول كاذبة الحمية
وتراجعت من بعدما ضمنت نجاح المسرحيه
وكان لتراجع تلك الجيوش السبعة أمام عصابات اليهود صدى
ساخر ، وظهرت صحف أوروبا يومذاك ، وفي بعضها الميزات ووخزات
لجيوش « الأصفار السبعة » كما سميتها ، وفي ذلك يقول زقطان نفسه
ويحق له أن يسخر ويتهمكم :

جيوش السبعة الأصفار كلُ تراجع حاملاً غار القيود
يزف لحاكمية نجاح كيدٍ رماك بكل قتال مبيد
وبراجع الجيوش العربية أخذت أمواج اللاجئين تندفق على
البلاد العربية المجاورة ، وكانت الشعوب لاتزال حتى ذلك اليوم
مخدوعة بمهازل حكامها ، فظنت أن هؤلاء اللاجئين هاربون من
المعركة والتضحية والاستشهاد ، وأساء بعضها استقبالهم ، واتهمهم
بعض بالخيانة والجبن ، فرد الشعراء الفلسطينيون هذه التهمة ، وهذا
أحدهم ، الشاعر محمد العدناني ، يلجأ الى الزرقاء في شرقي الأردن ، فيجد
من أهلها من يتهمه بالهرب ويعيره بالخوف ، فيرد عليه معاتباً ، مبيّناً
لكل مخدوع أن عرب فلسطين وقفوا وحدهم ثلاثين عاماً يصدون
عدوين غادرين هما الصهيونية والاستعمار ، وكانوا خلال ذلك للأمم
العربية درعاً واقية ، حتى عجزوا فاستغاثوا ، فأغاثتهم الخيانة :

ألوماً على ما نابنا من مصائب	ولم نجترح إثماً ولم نقترف ذنباً
وكنا لكم درعاً تقيمكم عصاة	تزف الأسي والشر والهول والجدا
وذدناهم عنكم ثلاثين حجة	بعزم محاشم المعازل والهضبا
ونحن صمدنا للعدوين وحدنا	صموداً أثار الكون قاطبة عجباً
هممت بلوم العرب لوماً مدوياً	على ما بدا منهم فردتني القرى
ولكن الشاعر عيسى الناعوري كان تألمه من التهمة أعمق من أن	

ترده القُربى ، فقفذ بالاتهام في وجه أصحابه ، وراح يفضح زمر
الخيانة والغدر :

كذبوا فكم جاهدت قبلُ وحيدةً	خصمين جبارين ، دون وئاء
حقب طوال لم تهن لك عزيمة	فيها ولم ترضي بالاستخذاء
شهدت لك الأيام واعترف العدى	ببطولة جبارة شماء
إن كان ذاك خيانةً يا حبذا	لو عشت خائنة بلا نصراء
هم أسلموك إلى العدو فرغوا	بالعار كل كرامة وإباء
بل مرغوا تاريخ يعرب كلّه	بمذلة لا تنتهي نكراء
زمر تعيش على الخيانة مثلها	عاش البعوض على خيث الماء

وفي طليعة زمر الخيانة تجيء زمرة الملوك والحكام والرؤساء ،
وقل أن نجد بين شعراء النكبة من لم يرجهم بحجر ، ولكن أباسمى
يفوق في هذا المجال سائر شعراء النكبة ويسبقهم :

يارفاق الدهر هل شردكم	في الورى غدرُ عدو أم مُحِب
زعماء دنسوا تاريخكم	وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها	سلمت أوطانكم من غير حرب
دول تحسبها شرقية	وإذا أمعنت فالحاكم غربي

ولقد رأينا منذ الدور الاول للنكبة نقمة أبي سامى على الملوك
وخياناتهم ، ومن الطبيعي أن تزداد نقمته في هذا الدور عليهم حدة

وعنفاً ، بعد أن بدت لكل ذي عين خيانة الملوك وأصحاب العروش
عارية سافرة ، فإذا هم أذئاب حقيرة للمستعمر ، يتنافسون في
مرضاته ، ويتيهون بالخيانة :

أذُنابى المستعمرين ملوك ؟ أمْلوكٌ وهم مطايا الأعادي
يتبارون بالخيانة تيهاً يالتيه الجُناة بالأصفاد !
وليس بينهم ملك صاحب عزة وكرامة ورجولة ، بل كلهم
أذلاء ، باعوا فلسطين دون أن ترتعش ضمائرهم لهول جريمتهم :

قال الملوك غداً نحمي دياركم ليت الأذلاء ما قالوا وما فعلوا
وعلمونا بساح المجد ننزلها إذا هم ساعة الجلى هم العلل
قالوا الكرامة ، قلنا أين صاحبها ؟ قالوا : الرجولة ، قلنا : أيهم رجلُ
باعوا فلسطين فلتهنأ ضمائرهم أما تراها على (الدولار) تشتعل
لقد ذل ملوك العرب حتى ليأنف العار ، ذات العار ، من أن
ينتسب إليهم :

أمْلوك ! وهم إذا نسب العا رُ إليهم أبى انتساباً معيباً
وهكذا وفى أبو سلمى خيانات الملوك حقها من التشهير ، ولكنه
كان يختص الملك عبد الله من بين الملوك بالضربة الحاققة :

خيانات الملوك وذلّ عرش أقيم على الخيانة والخراب
سعدنا في البلاد وحين سادوا غدت مرعى الثعالب والأذئاب

ولقد شن شعراء النكبة حملات عنيفة أيضاً على الجامعة العربية ودولها ، فكشفوا القناع عن وجه الجامعة ، وأظهروها عارية أمام الشعوب العربية المخدوعة بمهازلها ، فإذا هي ربيبة الاستعمار ، ولدت في حجر الانكليز ، ورضعت من أثداء المستعمر ، فلما نمت واستوت غدت مطيةً ذلولاً له ، ودمية طيعة بين يديه ، يحر كها كما يشاء .
يقول أبو سامي :

لنا دول ليتها لم تكن مطايا وأذئاب مستعمرين
وجامعة لم تزل دمية يخف إليها الرجيم اللعين

وهاجم شعراء النكبة كلهم بضراوة الاستعمار والمستعمرين ، لأن الاستعمار من أهم عوامل النكبة ، فبين الاستعمار واسرائيل رابطة لا تنفصم ، فالاستعمار يسخر اسرائيل ، فيجعل منها قاعدة لكل عدوان منه على العالم العربي ، ويتخذ منها مخبأ لضرب كل حركة قومية واستقلالية في بلاد العرب ، والصهيونية العالمية تسخر الاستعمار بدورها لحماية اسرائيل ، فتحطم اسرائيل إذا لا يتم إلا بالقضاء على الاستعمار الذي يستغلها ويحميها ، ولهذا يثور شعر النكبة على الاستعمار وأذنابه ، ويحمل الدول المستعمرة مسؤولية النكبة .

يقول الشاعر هارون هاشم رشيد :

لولا خداع الانكليز وغدرهم ما عاث في أرض الأسود كلاب

والغرب ! يا للغرب إن قدومه نحو البلاد مصيبة وخراب
هو 'أخطبوط فاجر مستعمر في كل ناحية له أذئاب
ويقول الشاعر خليل زقطان :

هي خطة وحشية لا ترفق الغرب واضعها وقومك طَبَقُوا
سنظل أشباه العبيد يضلنا هذا « الحليف » بفنه ويفرق

وشعر النكبة 'يدمي القلب ويبكي العين حقاً عندما يقف أمام خيام
اللاجئين ، ليقص قصة العربي التائه ! لقد انتهى دور اليهودي التائه
منذ أصبح له في اسرائيل وطن قومي يحميه ، ويدت 'يظله ويؤويه ،
وأرض تطعمه من خيراتها وتغنيه ، وهام العربي على وجهه ، بلا وطن
ولا بيت ولا أرض ، يلوب في الدروب ، حافياً عارياً جائعاً ، ذليل
الصوت كسير النفس والقلب ، ينتظر من الشعوب فضلات الإحسان
ليسدها رمقه ، وهو الذي خالف في وطنه السليب مئات الملايين من
الجنهيات !.. حتى إذا أقبل الليل ، أوى الى تلك الخيمة السوداء التي
أصبحت رمزاً كريهاً للنكبة .. وهذه الخيمة صدقة غير كريمة من
الدول اللثيمة التي أسهمت في النكبة وتشريد اللاجئين ، وهي ترجو
من وراء هذه الصدقة أن تخدّر الشعور العربي وتبلسه ، وأن تنسي
المصابين هول الكارثة ، والعار كل العار أن تقبل الأمة العربية هذه
الصدقة ، وما يتبعها من منْ وكالة الإغاثة ، وبلاد العرب تسبح فوق

بحر زآخر من الزيت ، وهذا الزيت مال الله ، يملكه الشعب العربي ،
وليس لفردٍ — من كان — أن يحتجنه أو يدعي ملكه ! فلنشتري بعضه
بؤس اللاجئين ، ولنمسح به دموع المنكوبين ! . « إن زيت الحجاز
والعراق والكويت - كما يقول الأستاذ نقولا الحداد - ليس لأهل الحجاز
ولا لأهل العراق ولا لأهل الكويت ، إنما هو ملك الله ، لأنهم لم
يزرعوه حتى يستغلوه ، ولا صنعوه حتى يتاجروا به ، فيجب أن
يدفعوا ضريبة ثقيلة عليه الله ! » .

ولكن كيف نأمل أن تدفع مثل هذه الضريبة ، والجيوب الشحيحة
التي تكنز (دولارات) الزيت ، لا يرى أصحابها بؤس اللاجئين ،
ولا يدر كون هول النكبة ، وهم لو كانوا أدر كوا فأحسوا فانتخوا
من الدنية لبذلوا وضحوا ، يوم كان قرار التقسيم يُلغيه عود ثقاب !
عود كبريت صغير يحرق آبار الزيت ، وينسف منشآته ، ويدك
مصالح المستعمرين ، ويجعلهم يحثون على الركب ، ويطلقون التفكير
قبل أن يزرعوا الدمل الاسرائيلي في قلب العرب .. لقد كان عود
الكبريت الذي كنا نملكه آنذاك يغنينا عن السلاح والعتاد الذي لم
نكن آنذاك نملكه ، ولكن المتسلطين على الزيت آثروا أن
يعلنوا بلسان ابن السعود عام ١٩٤٧ : « أن فلسطين عزيزة عليه ، وأنها
بؤبؤ عينيه ، وأنه لا يرضى لها إلا ما يرضاه لنفسه » ، فلما جدَّ الجدد
وصاحت فلسطين المستغيثة « وامعتصماه ! » أصمَّ أصحاب النخوة

الكاذبة آذانهم، وضمو جيوبهم على ملايين (الدولارات) من دخل الزيت، ووقفوا يحرسون مرافقه من نقمة الشعب، ليوفّوا بالتزاماتهم!! وأعلنوا في مجلس الجامعة العربية سنة ١٩٤٨ بلسان الشيخ يوسف ياسين « أن اليهود أغنياء وأقوياء وأذكاء ، وإن العرب — خست كلمة تخرج من أفواههم ! — لا طاقة لهم بحرب اليهود ، لأنهم فقراء وضعفاء !... » و... وكان عليه أن يقول : وأغنياء ! ولهذا كله كان لابد للنكبة من أن تدمر فلسطين ، وأن تنطلق لعنة الأجيال من فم شاعرنا الكبير عمر أبي ريشة ، تصفع قادة العرب وتخاذلهم :

ودعي القادة في أهوائها تتفانى في خسيس المغنم
رب (وامعتصماه) انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست أسماعهم لكنّها لم تلامس نخوة المعتصم
ولهذا كان لابد لأهل فلسطين من أن يهيموا على وجوههم
متشردين، بين نازح وطريد، كما يقول الشاعر محي الدين الحاج عيسى:
وطنٌ تمزّق قاطنوه وُشردوا فبكل أرضٍ نازحٌ وطريدٌ
نزحوا وخلّوا جازعين ديارهم ولهم هنالك مطرف وتليد
قد حازها أعداؤهم وتجرّدوا منها كما يتجرّد العنقود
وضلّ العربي الشريد في الآفاق ، كما يصوره الشاعر محمود الحوت:
وراح يضرب في الأرض العراء ضحى

ويقطع اليمّ مخموراً المنى وجفا

فلا يرى في اتساع الكون من عبر
إلا الضنى واختناق الروح والتلفا
أما إذا اربد وجه الليل يُفرّعه
وجدته بالغيوم السود ملتصفا
والجوع ينهش من أكبادہ قطعاً
وينثني من دماء القلب مرتشفا
تقاذفته بلاد الله يذرعها
مشرّداً ضلّ ، لا نهجاً ولا هدفا
وأصبح الفلسطيني المشرّد يُسأل في كل مكان : « من أين أنت ؟ »
وهذا الشاعر بشير قبّطي يُسأل فيجيب :
من أين أنت ؟ وزجرت كلماته في مسمعيّا .

. . .

أنا من ربا يافا ، من الشط المرصّع بالآلي

. . .

أنا من تلال الرملة البيضاء ذهبها الأصيل
من سفح غزة ، من ربوع اللد ، تحضنها السهول
من روض حيفا ، روض كرمها ، تلذّ به الشمول
من دوح يافا ، من عروس الشرق ، أسكرها الهديل
أنا من ضلوع القدس ، شرّحها بمبضعه الدخيل

أنا من معين الثأر ، من ثغر الأعاصير الغضاب
أنا من فلسطين التي انتفضت على قصف الحراب
قد ضلّ الدخلاء شعباً جاهلاً غص الإهاب
فيها فبات عرينها ملهى فسيحاً للذئاب
وعلى أيادي الساسة (النجباء) قد فرضوا اغترابي
ويحيب شاعر مشرد آخر ، هو هارون هاشم رشيد :
أنا لاجيء ، وطني استيحي وداسه غدر العدى
أنا نازح ، داري هناك وكرمتي والمنتدى
وطني هناك ولن أظلّ بغيره متشرّداً
لي موعد في موطني ، هيهات أنسى الموعدا
ويحيب شاعر مشرد ثالث هو يوسف الخطيب :
أنا لاجيء يا مصر أضرب في الحياة بلا دليل
أنا لاجيء يا مصر أمسح في الثرى جرحي الكليل
داري هنالك خلف أسوار الهزيمة والعويل
داري هنالك في الهوان تنن من قدم الدخيل

وعند خيام اللاجئين تلاقى شعراء النكبة، ومن الشقاء الرابض
في الخيام السود استعاروا مادتهم الشعرية، واستوحوا أسماء دواوينهم
فسمى أبو سلمى ديوانه الأول « مشرد » وأهداه « إلى أخيه الفلسطيني

المشرّد تحت كل كو كب » ، ومن وحي جوع سكان الخيام استعار
خليل زقطان اسم ديوانه « صوت الجياع » وأهداه إلى المشردين في
أنحاء الأرض ، ومن أجل اللاجئين أرسل هارون هاشم رشيد الحان
ديوانه الباكية « مع الغرباء » وأهداه إليهم :

إليهم ، إلى إخوتي اللاجئين إلى إخوتي يوم يدعو الدم
إليهم وإن سكنوا في الكهوف وفوق روابي الأسى خيموا
إليهم سأشدو بشعر الحياة ومنهم بروحي سأستلهم
وقد وفي هذا الشاعر بما وعد ، فأصدر ديوانه الثاني من وحي
هؤلاء الغرباء وعزيمتهم وسماه « عودة الغرباء » ، كما سمي يوسف الخطيب
ديوانه الثاني « عائدون » ، وباسم واحد من هؤلاء الغرباء ، أنشد
محمود الحوت « أناشيد عربي من فلسطين ضل في الآفاق » وأسمّاها
« المهزلة العربية » ، ومنذ تمثيل هذه المهزلة إلى اليوم ينذر أن تخلو مجلة
عربية دورية من ترديد صرخة شعرية تشكو إلى كل ضمير بؤس
اللاجئين ، وهي تنبعث من كل قطر من أقطار العرب ، كما ينذر أن
نجد شاعراً عربياً لم يخفق قلبه لآلام اللاجئين وعريهم وجوعهم ، فهذا
كاظم جواد يرسل من العراق هذا التساؤل الحزين :

أحشر جات النار ما أحس في الخيام . . .
أم رجع موسيقى الجراح يوقظ النيام . .
في ظلمة الملاجئ الدكناء والخيام

وهذا صوت عبد الوهاب البياتي ينطلق من « الملجأ العشرين »
ليقص في ألم حزين قصة القلوب الملتاعة التي تنتظر أنباء البريد ، مترقبة
طوال الليل ، وقد أنهكها الفراغ واستبدت بها الوحشة :

كفراغ أيام الجنود العائدين من القتال

وكوحشة المصدور في ليل السعال

كانت أغانينا ، وكنا هائمين بلا ظلال

مترقبين ، الليل ، أنباء البريد :

« الملجأ العشرون :

ما زلنا بخير ، والعيال

— والقملُ والموتى — يخصون الأقارب بالسلام

والذكرياتُ الفجأةُ الشوهاء تعبر ، والخيامُ

والريحُ والغدُ والظلامُ

كوجوهنا غبَّ الرحيل :

« أماء ما زلنا بخير » والذئابُ

تعوي وتعوي عبر صحراء السهاد :

يا إخوتي من أين نبدأ ؟ من هنا ! « ليلُ السعالُ

وبريدنا الباكي المعاد :

« لا شيء يُذكر ، لم تزل (يافا) وما زال الرفاقُ

تحت الجسور ، وفوق أعمدة الضياء

ولم يزلُ دمنا المراقُ
على حوائطها القديمة ، واللصوص
وحقولنا الجرداء يغزوها الجرادُ «

. . . .

(يافا) نعودُ غداً إليك مع الحصادُ
ومع السنونو والربيع
ومع الرفاق العائدين من المنافي والسجون
ومع الضحى والقبرات
والأمهات !
« الملجأ العشرون :

مازلنا بخير ، والعيالُ
والإخوة المتشردون

من قبونا النائي يخصوصون الأقارب بالسلام ،
ومن الإقليم الشمالي ، تتحدث إحدى الخيام الباكية بلسان الدكتور
بديع حقي ، فإذا « الخيمة الباكية » قلب راعش ، رغب الجراح ،
تلطمه العواصف ، وتسفعه الرياح الغاضبة ، فتثير آلامه وتهيج أحزانه ،
فيعكف على جراحه ، ويعاود الأنين والبكاء :
« وأبكي أنا ... »

ويخفق قلبي لطيفِ دنا ،

إليَّ هفا ... وانحنى
ليمسح جرحي بنور كثيب .
وتهدر ، في الليل ، ريح غضوب ،
وأبكي أنا
لوجه حزينٍ إليَّ رنا ،
ويمتدّ خيط يابره
ويرفو جراحِي بأنفاسِ جمرة
ولكن ، تجاذب جلدي ، وتسفع خدي ،
عواصف تلعبُ في المنحنى ،
فيرفضُ جرح ، بصدري ، رغيب ،
ندي ، طري ، خضيب ،
وأنجب ، وحدي ،
وأندبُ "حلو المنى ...
وأبكي أنا .. "

وأمام خيمة باكية أخرى من خيام اللاجئين في الأردن ، يقف
الشاعر كمال ناصر ليلتقط لها هذه الصورة الحية : خيمة مذعورة مصلوبة
حيرى ، يعوي فيها الفراغ ، ويحف بها الذل والهم والعذاب :
مذعورة ، على رحاب المكان مصلوبة ، منسية في الزمان
حيرى على أوهامها في المدى لاحب في سمائها ، لاحنان

مشدودة في الأرض معصوبة كأنما شدت بأيدي الهوان
النار في أرجائها أُنخدت وفي زواياها تلاشى الدخان
يعوي بها فراغها طاوياً في مقتلته الكبر والعنفوان
والهم من يأس بها مطرق يحصي عليها في العذاب الثوان
وإذا قبل الليل ، فغطى بحلكة ظلامه خيام اللاجئين ، وضمت
كل لاجئة فراخها تريد النوم ، صرخ محي الدين فارس من
الإقليم الجنوبي :

« لا .. لا تنامي .. »

الليل أوغل لا تنامي ..

خلف الخيام قطع ذؤبان ظوامي ..

الريح أطفأت السراج ، وقمقتها خلف الخيام

وفراخك الزغب الصغار تراعشت مثل الحمام

وتكومت فوق الحصير .. تكومت مثل الحطام

ناموا على جوع فما عرفوا هنا طيف ابتسام ... »

وعلى الضفة الغربية من الأردن ، تتناثر خيام اللاجئين ، وأمام

واحدة منها تقبع لاجئة حزينة ، مثل تمثال شقي ، لا تشارك الناس

مباهج العيد فتناجىها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان :

وأراك ما بين الخيام قبعتمثالاً شقياً

متهاكاً يطوي وراء هموده ألماً عتياً

أُتري ذكرتِ مباحج الأعياد في (يافا) الجميلة
 أهفت بقلبكِ ذكرياتُ العيد أيام الطفولة
 إذ أنتِ كالحسون تنطلقين في زهوٍ غريرٍ
 والعقدة الحمراء قد رفقت على الرأسِ النضيرِ
 والشعر منسدل على الكتفين محلول الجديلة !

و كيف تضحك اللاجئة للعيد ، وتشارك في مباحجه وأفراحه ،
 والعيد قد ضيع — كما يقول عيسى الناعوري — منذ النكبة معناه :
 عيدُ فلسطينا إحدى هداياه أضحى ! ولكننا كبرى ضحاياه
 لابهجة تتجلى في مظاهره أو فرحة تتبدى في ثناياه
 وكيف يفرح شعب بات موطنه نهبا لدى عصابة من شر أعداءه
 شعب تشرد ، لا قطر يهش له ولا أخ يُرتجى في دفع بلواه
 قدمات من كانت الأعياد تبهجهم وضيع العيد من عامين معناه
 ولهذا يُقبل العيد على شعر النكبة لينكأ فيه الجراح واللوعة ،
 ويزيد في إضرار أحزان المشردين وآلامهم ، فيذكرون به ذلهم وبؤسهم
 وعُريهم ، كما يقول خليل زقطان :

عيدٌ ولكن يا أخيه عيدٌ مواكبه شقيه
 أبصرتُ فيه الكبرياء تلوح كاسفة حميه
 وعلى محياها جرا ح الذل تجهر بالرزيه

أنى اتجهت فصورة الـ آلام واضحة جليه
والشعب يرزح في ظلا لـ البؤس في الحلل الزريه
خدعوه إذ قالوا العرو به لاتنام عن القضيه
وتسابقوا فعلام ؟.. يا تاريخُ قل عني البقيه

وليس عجباً أن يعكس شعر النكبة إثر الكارثة حزن المشردين
وحيرتهم وقلقهم النفسي وحقدهم ونقمتهم اللاهبة ، وأن تتفجر الثورة
كالنار من تلك « العيون الظماء للنور » بعد أن ضاع فردوسها وضاع
جسيمها ، وأصبحت لاتعرف إيمانها من كفرها ؛ وفي شعر يوسف
الخطيب ملامح واضحة لصورة فئة من جيل النكبة ، فئة مثقفة شاعرة
لم تحتمل أعصابها عنف الكارثة وأهوالها ، ففقدت إيمانها بكل شيء ،
واستبد بقلبها قلق جاحد كافر . يقول يوسف الخطيب يصف اضطراب
إيمانه أدام هول المأساة وحيرته وضياعه :
كم تنزت بين الضلوع كلومهُ والقذى كأسه .. فأين نديمهُ
ضاع فردوسه وضاع جسيمهُ

ليس يدري فناءه من وجوده ليس يدري انتهاءه من خلوده
ليس يدري إيمانه من جحوده

هكذا ياإله يشقى عبيدك أين وعد الأبرار ، أين وعيدك
أين عدل الحياة .. فيم وجودك !

أأصلي ؟ لمن تكون صلاتي لاجيء ، ليس لي هسيم حياة
ليس لي حفرة تضم رفاقي

وعندما يثوب يوسف الخطيب إلى نفسه يتبرأ من كفره وتفيض
من قلبه الجريح الحائر ثورة روح سجيئة : تنشد الفكك من قيود المذلة ،
والتححرر والانطلاق من العبودية :

لست بالكافر الذي يتجبر أنا روح يريد أن يتحرر
أنا بالقيد والمذلة أكفر !

لقد فتح الشاعر عينيه بعد الكارثة ، فوجد نفسه « في سوق
العييد » وسيط النخاس تكوي ضلوعه ، فكيف ينقذ « أنه »
ويسترد حريته :

ياأنا ، ياسلعة هينة للمشتري
ياأنا ، ياقدحاً في سهرات المترفين
ياأنا ، ياشمعة تحرق ليل الكادحين
في ضلوعي أي إصغار من الحقد الدفين

تلك آفاقي : دماء وحراب وسجون

وجباه في الدجى تنزف خمر الحاكين

في ضلوعه حقد دفين ، يغلي ويفور ، ويدفعه إلى الثورة ،
ويمنحه قوة الجبار ، فيظن أنه قادر على أن يقرر مصيره بنفسه ، وأن
ينتقم لعاره ، ويثأر لكرامته ، فيرسل من أعماق قلبه هذه الصرخة
الرائعة التي تتجاوز حدود شاعريته ، ويثب بها الشاعر وثبة يتفوق
بها على نفسه :

أنا مشعل ، أنا مارج جبار	لا الريح تخمدني ولا الإعصار
سأمد في الآفاق السنة اللظى	حمرأ لها في الخافقين أوار
ولأحرقن الليل حتى تنجلي	أسدأفه فتوقدي يانار
للميتين دموعهم وجراحهم	ولجذوقي ساح الوغى والثار
ولسوف أغسل جبھتي حتى ترى	مثل الضحى ، ويدوب عنها العار
أنا للحياة ولن أظل مشرداً	أقسمت لأرضي ولا أختار
ومشيئتي قدر على أقدامه	تتمسح الأيام والأقدار
لوشئت جمعت النجوم مشاعلاً	ودفقت منها الموت حين أثار
وذروت في القطبين أرياح الردى	فالأرض من بعدي لظى ودمار
أنا مجرم ، أنا حاقد ، أنا سيء	حتى تعاد الى ذوبها الدار

ويوسف الخطيب أشعر من غنى النكبة بعقيدة قومية عربية

اشتراكية، وهو الشاعر اللاجئ الذي نراه في ديوانه (العيون الظلماء للنور) و(عائدون) يعيش تجربة النكبة بدمه وأعصابه ..

ولد يوسف الخطيب في قرية من قرى مدينة الخليل عام ١٩٣١ من أسرة فقيرة ، وقد بذل له أبوه كل ما يستطيع حتى أتم تحصيله الثانوي في مدارس الخليل، وفي عام ١٩٥٠ أم يوسف الخطيب دمشق للدراسة في جامعتها ، حيث قضى سنوات أربعاً من حياته يدرس الحقوق ، ويعمل في الوقت نفسه في الإذاعة والصحافة ، ليكسب ما يعينه على العيش والدراسة ، حتى إذا فاز بإجازة الحقوق رجع الى الأردن ليعمل محامياً ومذيعاً ، فلما حصلت نكسة عام ١٩٥٧ هرب الشاعر ، والتجأ الى الاقليم الشمالي ، فاحتضنته دار الإذاعة في دمشق ، وأصبح صوته الأجش يهدر كل يوم من المذيع ، يذكر اللاجئين الفلسطينيين في كل مكان من العالم العربي أنهم لا بُد (عائدون) ، وينفخ في جيل النكبة روح العزيمة والنضال والصبر ، ليعرفوا أنهم على موعد مع القدر ، ويتقربوا أذان الفجر ليلبوا صيحة الزحف المقدس .

إن يوسف الخطيب شاعر قومي ، يؤج كل حرف من شعره بإيمانه الملتهب بعروبه ، ولهفته الظامئة الى الثأر :

أما ترانا في الدجى نعتلي وموعد الثأر ينادينا
نسعى الى الفجر ومانأتي نمزق الليل بأيدينا
إن كنت لاتعرف من أمتي فاسأل عن العرب المياديننا

نكاد من سورة آلامنا نتخذ الحقد لنا ديناً !
لقد آمن المشردون جميعاً بالحقد ، فصغارهم يرضعونهم الحليب ،
وهذه « رقية » صورة حية من صور النكبة ، ترسمها الشاعرة فدوى
طوقان ، لأُم فقيرة لاجئة ، تعصف في صدورهما الأضغان ، ووليدها
يتململ في حجرها :

تلمل في حضنها فرخها فضمته محبوبةً نائره
ومالت عليه وفي صدرها مشاعر وحشية هادره
لترضعه من لظى حقدتها ونار ضغائنها الفائره
وتسكب من سم خلجاتها بأعماقه دفقة زاهره
وليس عجباً أن يعمر الحقد صدور المنكوبين إثر وقوع الكارثة ،
وأن يملأ جانباً ضخماً من جوانب شعر النكبة ، ولقد تسرب الحقد
الى صدر كل عربي ، ولو لم يكن فلسطينياً مشرداً ، ذلك أن (أخوة
العار) شملت كل عربي ، وتركت له في فلسطين جرحاً رغبياً ينتظر
الثأر ، ولهذا ينطلق صوت محمد بدر الدين من القاهرة :

أنا يا أخي في العار لن أنسى هناك
فأخي الشهيد على الثرى ملقى هناك
والثأر يوماً سوف يجمعنا هناك
أنا من هنا ... لكن جرحي من هناك

...

ستثير أحقادى مرارة ذاتي
وتعيد في ذهني خيال النكبة
هي نكبتى ، فالقدس كانت قبلتي
إن لم اكن منها ففيها أمتي
واللاجئون من الضحايا إخوتي
يوماً سأكتب في ثراها قصتي
بدمي ، وأنسف قيدها بعزيمتي
فإذا صرعت ، أخي فوسدني هناك
أنا من هنا ... لكن روحي من هناك !..

غير أن مرور الزمن على جراح الكارثة خفف من ثورة القلب
والخيرة عند شعراء النكبة ، فخفت صوت الحقد والضعينة في
نفوسهم ، وجدت عوامل كثيرة أعانت على كبج جماع اليأس
في قلوب المنكوبين ، كانفجار الانقلابات الشعبية في كل طرف
من أطراف العالم العربي ، ونجاح الثورة المصرية وتصفية الفساد في
كبرى الدول العربية ، وتولي القيادات المؤمنة المخلصة أزمة الأمور
في كثير من أقطار العرب ، وقيام الوحدة بين القطرين المصري
والسوري ، وازدياد الوعي القومي والثوري في أوساط الشعوب

العربية ، وبتقلص ظلال اليأس أشرق التفاؤل في شعر النكبة ،
وأشعت من جديد حرارة الإيمان بالشعوب العربية ويقظتها وبعثها
ووحدها ، كما يقول يوسف الخطيب :

غرة البعث أشرقت تسحب النور على اليد والقرى والحوضر
فاعصري يا أكف منها نبيذاً واستحمي في ضوءها يانواظر
نحن في موئل العروبة شعب جمعتنا رغم الحدود الأواصر
ومع يقظة الشعب العربي يتفجر جدول الضياء ، وتعلن الأمة
العربية إيمانها بنفسها ، وعزيمتها على التحرر ، كما يقول الخطيب نفسه :

هكذا جدول الضياء تفجر

هكذا راحت الملايين تزخر

وحذاء كالرعد : الشعب أكبر

إن شعباً يريد أن يتحرر

ويعلو عند ذلك صوت أبي سامي يحث الشعب على الثورة وتحطيم
جبروت الطغاة :

ثورة الشعب طمّري كل أرض واحطمي كل من طغى وتجبر
فيعيش الإنسان حراً طليقاً وينير الطريق شعب تحرر
وتستبد الثقة بالشعب وقوته ببعض شعراء النكبة فيزار في وجه
الطغاة ثائراً مهدداً مغالياً ، كما يفعل خليل زقطان :

فليقرأوا فوق الجباة الغر فلسفة العصاة

صوراً من الإصرارُتْ لمن أنما الشعب الإله

ومما يزيد موجة التفاؤل إشراقاً في شعر النكبة ، اندفاع تلك
الثورة العارمة من الحنين إلى أرض الوطن المغصوب ، فبعد أن ذاق
اللاجئون التائهون مرارة التشرد والغربة فاض بهم الشوق إلى الوطن
والديار ، وهذا محيي الدين عيسى يناجي ربوع جبل الجرمق بعد خمس
سنوات من التيه والتغرب :

حيَّتْكِ عني يا رباع الجرمق أزكى النسائم من مشارف جأت
خمس من السنوات مرت لم تذق عيني الكرى إلا لطيف مؤرق
طيفٌ يجدد كل يوم لوعة ويشير فرط صبابتي وتشوئي
وهذا أبو سامي يحن إلى داره في فلسطين ، وإلى دنيا من الذكريات
الحلوة التي خلفها فيها :

داري التي أغفت على ربوة حاملة بالمجد والغار
تفتح الزهر على خدها فعطرت أيام آذار
والتينة الخضراء في ظلها تاريخ أشواق وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى تروي حكاياتي وأخباري
وهذا عبد الرحمن الكيالي يحن إلى يافا وأمسياتها الحلوة :
ويافا الجميلة بنت المفاة ن كيف عن الأهل سلوانها
أصبو إلى البحر عند الغروب وتشدو على الماء خلجانها

ويعلو الضجيج بها في الصباح ويلهو مع الليل نشوانها
والحنين الصادق اللوعة حقاً يفور في قلب شاعر النكبة يوسف
الخطيب ، فقد كان ذات أصيل على شاطئ بردى حين رأى عندليباً
مقبلاً من الجنوب ، مهاجراً مثله من فلسطين ، فيسأله ويناجيه
بأرق النجوى :

وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي ، وآهاتي ..

بيّ لهفة يا صاحبي مشبوبة النار
هل بعض أخبار تحدثها ، وأسرار
للظالمين على متاه الوحشة العاري
كيف الحقول تركتها في عرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار
.. عجباً ، تراك أتيتنا من غير تذكّار !

لو قشة ممّا يرف بيدري البلد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث أو ربا صفد
لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد !

أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمد

عهدي بدار طفولتي سحرية الصور
مغسولة الربوات في شلالة القمر
أواه كم أمسية عريّة السمر
كانت لنا في كل راية ومنحدر
كم سرحة عند الأصيل ويقظة السحر
بسلاننا ، ملء الربا ومسارب الشجر

...

ماذا رحيلك أيها المتشرد الباكي
عن أرض غابات الخيال وفوحها الزاكي!
أم أن مرج الزهر أصبح قفر أشواك
وتلوّنت أنهارها بنجيع سفّاك
.. داري ، وفي عينيّ والشفقتين نجواك
لا كنت نسل عروبتني إن كنت أنساك

ومن مظاهر التفاؤل في شعر النكبة أن تلتهب في جوانبه الدعوة
إلى الثأر ، وأن تغلي فيه عزيمة التصميم على العودة إلى الوطن ، وبعد

أن كنا نسمع من شعراء النكبة أنين اليأس من استعادة الأرض
المغصوبة ، وثورتهم على تخاذل الشعب العربي وضعفه وانهباه وهزال
وعيه ، أصبحنا نسمع منهم صرخات القوة والإيمان بوعي الشعب
ونضاله ، ويمكننا أن نضرب الأمثلة الكثيرة على هذا التطور في شعر
النكبة ، فهذا الشاعر عيسى الناعوري كان في ساعات يأسه ينكر
وعي الشعب العربي ويتهمة بالخنوع والاستسلام لكل طاغية :
الوعي وعي الشعب كذبٌ فما في شعبنا وعيٌ وأحرارُ
نمجد الطاغى ونعنو إذا ما ساقنا للذل سمسارُ
ثم أصبح الشاعر نفسه يطلق صرخة الإيمان بالشعب لخوض
معركة الثأر :

يا فلسطين إن للثأر يوماً سترى الأرض هوله والسماءُ
فبنوك الذين قد شردتهم نُوبُ الظلم ما اعتراهم وناء
سوف يبقى الحق المقدس فيهم يتلظى ولن تقر الدماء
وهذا الشاعر اللاحى خليل زقطان كان اليأس يدفع به إلى مثل
هذا القول :

يا صاح لا تحلم بأنك عائدٌ للربع فالأحلام قد لا تصدق
سنظل ندعى لاجئين كما ترى ويظل يخدعنا الذي يتشدق
ثم غاب اليأس ، وأطل الأمل والإيمان بوعي الشعب في شعره ،
كالذي نجده في قوله :

يا أمسنا المخضوب بالدم ، بالفواجع ، بالدموع
 اغرب ، فقجر الوعي عائق نوره أمل الجموع
 فشت تُزيل معالم الفوضى وأسباب الخضوع
 وهذا الشاعر كمال ناصر ، نجد في ديوانه (جراح تغني) نقمة عارمة
 على الشعب وجبته ، إذ لا يجد فيه البطل الفارس الفدائي :
 لا بطل يمشي الى حتفه مؤزراً ، مغامراً ، مؤمناً
 لا فارس تُضرمه غاية ويدعيه في الجهاد السنا
 ولا فدائي جريء الخطا يستعذب الميتة بين القنا
 صرختُ في يأسِي وفي حرقتي ما أحقر الشعب وما أجبنا !
 فإذا انحسرت موجة اليأس والحرقه ، وأشرق التفاؤل ، دوت
 صرخة الشاعر نفسه ، تعان في زهو لاحد له ، إيمانه بالشعب
 وقوته وكبريائه :

أنا الشعب فلتسمعي يا ذرا نشيدي ، يدوي بسمع الفضاء
 أمدُ جناحي عبْرَ الجراح فن كبرياء إلى كبرياء
 أنا الشعب يا حفنة المرجفين نداء الخلود وسرّ البقاء
 على مقلتي مصير الوجود وفي وجنتي مصير القضاء !

أما الشاعر الذي هزم اليأس فلم يجد إلى قلبه سبيلاً ، فهو شاعر
 العودة غير مدافع بين شعراء النكبة جميعاً ، أعني هارون هاشم

رشيد ، ذلك أننا نجد في دواوينه الأربعة (مع الغرباء - عودة
 الغرباء - غزوة في خط النار - أرض الثورات) تلك الروح المتوهجة المؤمنة
 التي لا يعتريها يأس ، ولا يتزعزع إيمانها بكسب الجولة الثانية :
 من الكهف والخيمة البالية سأجمع للشار أشلائيه
 سأجمع أهلي وأصحابيه وأصرخ من عمق أعماقيه
 وأرسلها صيحة داوية وأدعو إلى الجولة الثانية
 وعلى الرغم من أن الشاعر عاش مع اللاجئين الغرباء تجارب كاملة
 في ديوانه الأول ، فرأى بؤسهم وعريهم وجوعهم ، فإن روح التفاؤل
 والنضال لم تمت في شعره :

هذي الخيامُ ألا ترى ضاقت بمن فيها الخيامُ
 لا .. لا يُروّعك السقا م فلن يحطمها السقام
 كلا ولا هذا الشقا ء إذا تفشى والحمام
 لا لن يضير عقيدة من أجلها صلوا وصاموا
 وكان الشاعر ينفخ من روحه القوية في قلوب المنكوبين التائهين
 ليواصلوا السير والكفاح :

يا أخي الضارب في التيه وما كَلَّت خطاك
 أنت تمشي باندفاعِ والدنى تمشي وراك
 فإذا اليأس تراءى حطمته قبضتك
 وإذا الدمعُ تنزى جففته مقلتك

يا أخي ، إن تهتَ في الدرب ، فلا تلق عصاك
سروكافح جاهداً ما استطعتَ تبلغ مبتغاك
فشاعر العودة مؤمن بالعودة ، على الرغم من كل شيء :
سنعود يا أختاه للوطن رغم الشقاء وقسوة الزمن
رغم الليالي العابثات بنا والجوع والتشريد والمحن
وهو يرى يوم العودة قريباً ، ويعلن أن الزحف المقدس على
فلسطين لاستردادها موعده غد :

قسماً بهم .. قسماً بمن قد شردوا
تحت الخيام الباليات وأبعدوا
قسماً بأقداس لهم 'تهدد'
عيسى بنى أمجادها ومحمد
سنكون بركاناً يمور ويزبد
سنكون حرباً لا تكل لها يد
وسنجمع الشمل الكبير ونحشد
وإذا دعا الداعي وحان الموعد
ألفيتنا من كل صوب نرفد
كالسيل نهدر بالجهاد ونزعد
الزحف ٠٠ إن الزحف موعده غد

ففي غد ينتشي الكون بوثة الجيش العربي على فلسطين الشهيدة ،

يقوده بطل كصلاح الدين ، فيستخلص الديار المقدسة ، ويثأر
للضحايا والشهداء :

يا فلسطين أراها وثبةً في غد ترعد بالكون انتشاءً
وصلاح الدين في فيلقه يرجم البغي انتفاضاً وارتواءً
وأرى حطين من فرحتها زحفت تلقاه حباً ووفاءً
وأرى من حولها أمتنا بذلت في ساحة الثأر الدماء
وسرايانا التقت في موعدٍ مسح الدهر بها ماقد أساء
ولواء النصر معقودٌ لها والمروءات تحيي الشهداء
أما دعاة السلام الذين يتبجحون بالمثل الانسانية ، ويدعون الى
قتل روح الكفاح في الشعب ، ويتناسون دماء فلسطين الذبيحة ،
فإن شاعر العودة هارون هاشم رشيد نفسه يدعونا أن نقول لهم :

قولوا لأشباه الرجال ولا رجال
الهاربين من الجهاد ، الخائفين من القتال
قولوا لهم : وضع النهارُ وأشرقت شمس النضال

...

قولوا لهم : أين السلامُ الحق أشياعَ السلامِ
والداعرون يمزقون قداسة الأرض الحرامِ
يتمتعون بخيرها .. ونموتُ في ليل الخيام

.....

الجلولة الكبرى غداً ٠٠ لا بد منها والكفاح
سنسير للنصر القريب ، ولن يؤخرنا النباح

ومن أبرز مظاهر التفاؤل في شعر النكبة عودة الثقة بالنفس
العربية ، وتحديها من جديد للدولة المسيخة ، فقد استطاعت مصر
الثورة أن تبني للعروبة جيشاً قوياً يقف في وجه مطامع اسرائيل ،
وأصبحت الدولة اليهودية إذا رفعت صوتها تتهدد العرب وتتوعدهم ،
تلقت من الرئيس جمال عبد الناصر مثل هذا التحدي الساخر : «فلتهجم
اسرائيل في الربيع ، ولتهجم اسرائيل في الصيف ، ولتهجم اسرائيل
في الخريف ، ولتهجم اسرائيل في الشتاء إن كانت تحب الشتاء!»
ويتلقف شعر النكبة هذا التحدي فيصوغه شعراً ، ويوجهه إنذاراً
صاعقاً الى اليهود المعتدين ، بلسان الشاعر سمير صنبر :

الموتُ عبر خطوطنا فليزحفوا

وليهمجوا ، وليعتدوا ، وليعرفوا

أن الدماء ، دماءنا ، خلف الحدود

تغلي وتصنع من جديد

تاريخ شعب يهتف :

فليزحفوا

وليعرفوا

أنا سنُرجع بالإرادة ، بالحديد
أرضَ الجدود .

• • •

وليصرخوا ، وليكذبوا ، وليهرفوا
وليعدوا ، وليقتلوا ، وليختفوا
وليأثموا
وليعلموا

أنا الجدار المستعد الصامد
أنا الصراعُ المستنير الخالدُ
إيماننا الخط المنيع الراصد
أرواحنا الفجر القريب الصاعد
فليفقدوا أعصابهم •• فليفقدوا
وليطلقوا نيرانهم ، وليعدوا
فالموعِدُ

في صدرنا لهبٌ يثور ويزبد
في أرضنا ظمأٌ يشن ويحقد
ولنا الغدُ

والجولة الأخرى وركبُ الصامدين
ودبيب أقدام المشاة الظافرين

وهتاف آلاف الضحايا النازحين
القدس ، حيفا ، دربنا ، فليعرفوا
الموت عبر خطوطنا فليزحفوا ..

وزحف اليهود بحماية الاستعمار على مصر ، بعد ثماني سنوات من
التقسيم ، ووقفت غزة في خط النار صامدة كما صمدت بورسعيد ، وعندما
دخلها اليهود رأوا فيها شعباً جديداً ، يختلف كل الاختلاف عن الشعب
الذي عرفوه قبل سنوات ... فقد قابلهم في غزة جيل عربي جديد ،
يعمر قلبه الإيمان والشوق الى الشهادة ، لا يهرب القنابل ، ولا يُخلي
دوره وربوعه للغزاة ؛ وكذلك بقي الشاعر هارون هاشم رشيد في
بلده غزة خلال الاحتلال ، طوال شهرين ، فلما اضطره العسف
الصهيوني الى مغادرة غزة ، لم يطق قلبه وداع بلده الحبيب :

أوداعاً ؟ فيمَ ياغزةُ بالله الوداعُ
وأنا منك تراب وشعور والتاعُ
أنا إن ودّعت مغناك تلقّاني الضياع
وتلقّتي ذناب جائعات وضباع
أوداعاً.. لاو حق الثّار ، لا كان الوداع

وعندما انسحب المعتدون يجرّرون أذيال الخيبة ، عاد الشاعر
إلى غزة ليشيّعهم متحدياً :

مازلت لهيباً مشتعلًا يدعو للحرب وللشار
ولقد كان الاعتداء الثلاثي أبلغ درس في معركة النكبة، لإسرائيل
والعرب معاً : فأما إسرائيل فقد أيقنت بعد الاعتداء أن الأمة العربية
قد ولدت من جديد ، وفي يد كل فرد منها سلاحه ، يتحدّى كل
مغتصب معتد ، بلسان الشاعر صلاح الدين عبد الصبور :
سأقتلكُ

من قبل أن تقتلني سأقتلك
من قبل أن تغوص في دمي
أغوص في دمك
وليس بيننا سوى السلاح
وليحكم السلاح بيننا !

وأما العرب فقد لفقتهم النصر الى قيمة اتحادهم، فصاغ جمال عبدالناصر
وشكري القوتلي معاً أروع قصائد النكبة بميلاد الجمهورية العربية
المتحدة ، وهي أول قصيدة في نشيد الوحدة العربية الكبرى .
لقد كانت نكبة العرب في فلسطين هزّة عنيفة عصفت بكيانهم
من جذوره ، وأيقظتهم من نومهم بأهوالها وآسيها ، ولم تمض عشر
سنوات على تقسيم فلسطين حتى أصبحت الوحدة العربية حقيقة واقعة
بعد أن كانت حلاماً بعيداً ، وبدأت طلائعها بقيام الجمهورية العربية المتحدة
وأيقن العرب أن النكبة ستكون الحافز العميق ليقظتهم وبعثهم .

أما شعراء النكبة فلم يغفلوا عن رصد أثرها في توحيد الأمة العربية ، فهذا أبو سامى يناجي فلسطين بقصيدة يسميها « بعد عشر سنين » يحدد فيها دور النكبة في الوحدة ، ويقرر أن الوحدة العربية الكبرى لا تتم إلا بتحرير فلسطين من مغتصبيها :

يا فلسطين مضت عشر وفي كل يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا عرباً : قلباً ووجهاً ولسانا
يا أحبائي مضت عشر ولم تلثم الأترب المفدى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحدث بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا
والي اليوم ، وبعد مضي اثنتي عشرة سنة على اغتصاب الأرض
المقدسة ، لا يزال شعر النكبة يوالي إنشاد أغانيه ، ينفخ بها في جيل
النكبة روح النضال والكفاح والثأر ، في انتظار يوم المعركة الحاسمة ،
ويعلم للعالم أن العرب لا ينسون دماء فلسطين مهما يطول ليل المحنة ،
وأن النكبة لا تزيدهم إلا قوة وعزيمة وإصراراً ، كما يقول أبو سامى :
كيف ننسى وعلى كل ثرى دمنا يسري سعيراً والتهابا
نحن في النكبة أصفى جوهرأ كلما اشتد لهيب النار طابا

★ ★

الفصل الخامس

خصائص شعر النكبة

قدّمنا في الفصول السابقة خلاصة الحقائق التاريخية للنكبة الفلسطينية في دوريتها ، منذ أن أعلن وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، الى عامنا الحاضر ١٩٦٠ ، بعد مضي اثني عشرة سنة على تقسيم فلسطين ؛ وعرضنا مشاهد مختارة متسلسلة من الشعر العربي المعاصر الذي يحكي أحداث النكبة ويعكس أصداءها ، ولقد حاولنا في هذا العرض الشعري ألا نطيل الطريق ، وأن نضمن — ما استطعنا — للمشاهد ترابطاً ينجيها من التفكك ، وحرّكة متتابعة تعين على ملاحظة مراحل شعر النكبة ورصد تطوره ، ولهذا كان علينا أن نوجز ، وأن نكتفي عند كل مشهد بإيراد حفنة مختارة من الشعر ، راجين أن يغني القليل عن الكثير ،

وأن ينوب عنه في تمثيل الأحداث وتصويرها ، وأن يشف عن أهم
الخصائص الفنية التي يمتاز بها شعر النكبة .

ولقد آثرنا أيضاً أن نجمع الدراسة الأدبية لشعر النكبة في
فصل خاص بها ، على أن ننثرها تنقاً في تضاعيف المشاهد الشعرية المعروضة
قبلاً ، ولنا من وراء ذلك غاية فنية وهي حماية العرض الشعري
من تراخي الحركة وضعفها وتفككها ، وغاية تعليمية وهي إبراز
خصائص شعر النكبة وتحديدتها وتكثيفها وإعانة الدارسين على
تلمسها وحصرها .

— ١ —

هزت النكبة ضمائر الشعراء العرب في كل قطر ، فقالوا الشعر
في غنائها ، فدلل شعر النكبة بذلك على أن محنة فلسطين ليست كارثة
محلية ضيقة ، بل هي نكبة قومية جامعة ، أيقظت بأهوالها ومآسيها
أمة العرب ، في كل قطر من أقطارهم ، وأظهرتهم على أن اغتصاب هذا
الجزء المقدس من كيانهم الأرضي الموروث مقدمة تكشف عن
أطماع للصهيونية والاستعمار في وطنهم لانهاية لها ، فضلاً عن كرامتهم
التي ديست ، والدماء العربية التي هدرت ، ولهذا ارتعش وجدان كل
عربي مؤمن بعروبوته ، وتفجر الشعر الحزين من قلب كل شاعر

عربي ، يبكي ضياع فلسطين ونكبة الأمة العربية فيها ، ومن النادر أن يخلو ديوان شاعر عربي معاصر من صفحات تعكس أصداء النكبة وتروي شيئاً من أحداثها ، غير أن الشعراء من أبناء فلسطين هم الذين غنوا أصدق ألحان النكبة وأعمقها وجداناً وعاطفة ، لأنهم صدروا فيها عن واقع وطنهم ، وحكوا عن التجارب التي عاشوها بأنفسهم ، والمآسي التي رأوها بأعينهم ، وماراء كمن سمع ، ولا منكوب كمؤاس ، ولقد برز منهم ابراهيم طوقان في الدور الأول ، ويوسف الخطيب وأبو سامي وهارون هاشم رشيد في الدور الثاني ، فكانوا في الطليعة : فأما ابراهيم طوقان فقد كان يغني النكبة بألحان كثيفة متشائمة ، ترضع من نفس حزينة ، وجسم مريض معلول ؛ وأما يوسف الخطيب فإن ألحانه عصارة قلب متمرّد ، عاش تجربة النكبة بكل دفقة من دمايته ، وكل رجفة من أعصابه ؛ وأما أبو سامي فإن أغانيه الرائعة تعاصر النكبة في دورها ، وتفيض مرارة وحقدًا على (مجرمي النكبة) من الملوك والقادة ، وتقطر حنيناً وشوقاً الى الوطن المغصوب ؛ وأما هارون هاشم رشيد فإنه شاعر الأمل والعودة ، وفي شعره زاد وجداني حماسي يلهب جيل النكبة ، ويمنحه القوة والعزيمة والتفاؤل والاستعداد للجولة الثانية ؛ وفي شعر كل واحد من هؤلاء نفس سام ، وعاطفة صادقة متوهجة ، وطبع مصقول ، وموسيقى عذبة متموجة ، ونزوع واع الى التجديد .

نرى في شعر النكبة صورة واضحة المعالم لمختلف التيارات الاجتماعية التي تعصف بالأمة العربية وهي تتلمس طريقها نحو اليقظة والنور والحرية ، من اليسارية فالاشتراكية إلى القومية فاليمينية : ففي الدور الأول من النكبة يطالعنا تمثيل كامل لهذه الاتجاهات كلها في شعر أبي سلمى وعبد الرحيم محمود و ابراهيم طوقان وبرهان الدين العبوشي ، أما في الدور الثاني من النكبة فقد ازداد بعض هذه الاتجاهات تبلوراً وإشعاعاً بسبب من ازدهار الدعوات التي تمثلها في العالم العربي ، كالتيار القومي الاشتراكي ، وخفت صوت بعضها ، كالتيار اليميني ، ومرد ذلك إلى أن العرب رأوا - في دفاعهم عن كيانهم الأرضي الموروث وعن عروبة قطعة منه - أن يقودوا المعركة في فلسطين على أساس قومي ، لا على أساس ديني ، وكان موقف بعض الدول الإسلامية من المعركة غير محمود ، فقد ضلّت شعوبها المسامحة فلم تع وعياً كافياً بأن معركة العروبة في فلسطين هي - إلى ذلك - معركة المسجد الأقصى والصخرة المقدسة !

ولهذا بقي العرب وحدهم في الميدان ، يخوضون معركتهم القومية الكبرى ، وتقاص ظل الاتجاه الإسلامي وانزوى على استحياء إذ

لم يجد في الدور الثاني ما يعينه على موالاة الحانة^(١) ..

غير أن أصنى ألحان النكبة - في رأيي - وأكثرها انسجاماً مع طبيعة الكارثة ، وأغناها فائدة ومردوداً ، ما كان منها صادراً عن إيمان قومي واعٍ ، مدركٍ لقيمة الطاقة الإسلامية ودورها في دعم النضال العربي الموحد ، متفتحٍ للإنسانية كلها ، متجاوبٍ معها في سبيل إثارة الضمير العالمي ... ومثل هذه الألحان الصافية قليل في شعر النكبة ، نجد أصداء مبعثرة لها في شعر هارون هاشم رشيد ؛ وليس من ريب في أن مثل هذه الألحان تلتقي على غنائها القلوب المؤمنة كلها ، فتثير في النفس العربية تطلعاً متفائلاً إلى المستقبل في قوة وعزيمة وإصرار ، وينطلق العمل للثأر في اتجاه موحّد هادف مؤمن ببناء .

— ٣ —

وفي شعر النكبة نجد أيضاً صورة للمخاض النفسي العنيف الذي عاناه العرب في مختلف أطوار النكبة .

في الدور الأول من النكبة كان شعراؤه - على الرغم من تعدّد

(١) - من الانصاف أن نذكر هنا تلك السرية من المتطوعين البوغو سلافيين المسلمين الذين أسهموا في معارك يافا (النكبة - لعارف العارف : ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٧) وإن لم يكن لها أثر كبير في طوفان النكبة العارم .

اتجاهاتهم واختلافها - يتلاقون جميعاً عند الدعوة إلى تنبيه الغافلين ،
وضمّ الجهود المبعثرة ، وسلوك سبل القوة والثورة ، والكفر
بالزعامات الزائفة المستغلة ، وتمجيد الفدائيين والشهداء ؛ ثم جاء
الدور الثاني فكان شعر النكبة في أوله يموج بالقلق والحيرة والشك ،
وهو بذلك كله صورة صادقة للنفس العربية الجريحة الكبرياء في أعقاب
المعركة ، عندما صدمتها الهزيمة فأذهلتها وغمرت في ظلمة قائمة من الغضب
والياس والانهيار ، ثم فجّرت منها براكين الحقد على كل من له يد في
الجريمة العظمى ، من الحكام والملوك والساسة العرب إلى إسرائيل
والصهيونية والاستعمار وأذنبه ..

ثم استيقظت النفس العربية وقد صهرت الهزيمة معالمها بكتابة
طاغية قائمة ، يزيد بؤس اللاجئين المشردين في قُتمتها !

ثم أشرق على شعر النكبة في دوره الثاني طور جديد ، تنسم
الشعراء فيه روح التطلع والأمل والتفاؤل ، فأظهروا على أن الشعوب
العربية لم تُهزم ، بل هُزمت حكوماتها الخائنة المتآمرة ؛ وازدادت
إشراقة الأمل إثر الانفجارات الشعبية في كل عاصمة من عواصم العالم
العربي ، وفي كل طرف من أطرافه ، وبذلك عادت للنفس العربية ثقها
بذاتها ، وبدأت سلسلة من الانتصارات العربية تتوالى ، بفضل قيادات
شعبية واعية ، صنعتها النكبة ونفخت فيها روح العزيمة والجهاد ، فإذا
النفس العربية تولد من جديد ، مدركة ذاتها ، تتحدى كل معتد أو

مغتصب ، وباتت - بعد أن نزعت من صدرها أغلال القلق والحيرة
والشك - تنتظر في شوق وثبات وإيمان موعد الزحف المقدس ،
لتحقيق الوحدة الكبرى و كسب الجولة الثانية .

— ٤ —

استطاع شعر النكبة - وهو يستوحي ما سيها وأهوالها- أن يُغني
العنصر العاطفي والحماسي فيه ، ووفق في تمثيل الجانب الحزين والمتمرّد ،
فأبكى العيون بما صور من بؤس اللاجئين وشقائهم وجوعهم وعُريهم
وهم يقاسون الأهوال السود في الكهوف والخيام ، وهزّ القلوب بما
نقل من مشاهد حماسة المشرّدين للتعبئة وحنينهم إلى العودة وشوقهم
إلى الثأر ؛ إلا أن شعر النكبة لم يكدّ يعني بغير هذا العنصر الانفعالي
الوجداني ، فظل العنصر الفكري فيه فقيراً ، ذلك أننا لا نجد في
شعر النكبة ما يُعين على تزويد الضمير العربي بالسند الجدلي لحق
الأمة العربية في فلسطين وبطلان مزاعم الصهيونية وادعاءاتها ؛ ثم إن
شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الايجابي للمأساة القومية
الكبرى ، المعنى البناء الذي يحدّد الهدف ويرسم الطريق ، فهم جميعاً
دعوا في شعرهم إلى الجولة الثانية ، دون وعي أو دراسة ، فإسرائيل
ليست غزوة حرية ابتلى بها العالم العربي ، كالغزوات الصليبية الماضية ،

بل هي غزوة حضارية مركزة ، تتسلح بالعلم والغنى والقوة، فهي خطر
دائم دائم ، مادمننا جاهلين فقراء ضعفاء ، ولوانا استطعنا أن نكسب
الحرب وأن نقضي على الدولة المسيخة ، وبقينا من بعد دويلات
مفككة منحلة متعادية متنابهة ، وشعوباً ممزقة جاهلة متأخرة ،
لتفرق اليهود في البلاد العربية ، غائمين آمنين ، واستعمروها كلها
بتفوقهم الحضاري والاقتصادي ! يجب أن يدرك شعراء النكبة
أن الجولة الثانية وهم لا فائدة منه ، إذا لم تسبقها إقامة الدولة العربية
المتحدة التي تجمع العرب ، وتقضي على عوامل التجزئة والتفرقة
والتفكك والتخاذل ، وتتسلح بالعلم والمعرفة ، وتستثمر ثروات
الأرض العربية الغنية ، وتأخذ بكل أسباب القوة ؛ وقيام هذه
الدولة العربية الموحدة ، وبناء مواطنيها هذا البناء القوي الراسخ ،
يتم القضاء على اسرائيل ، من قبل أن تبدأ الجولة الثانية .

إن إقامة الدولة العربية الموحدة في العالم العربي لا تتم إلا بالقضاء
على الاستعمار وأذنا به فيه أولاً ، والاستعمار هو خالق اسرائيل وحاميها ،
وبطرده من العالم العربي وتصفية أعوانه ينكشف ظهر اسرائيل ويقرب
يومها الموعود ! وقد أدرك شعراء النكبة هذه الحقيقة فتلاقوا جميعاً
على مهاجمة الاستعمار وتحميل المستعمرين مسؤولية النكبة ، ودعوا
الشعوب العربية في كل قطر عربي إلى الثورة على الاستعمار وطرده من
العالم العربي والقضاء على زبائنه وأعوانه .

أهمل شعر النكبة قيمة العنصر الأخلاقي عند دعوته الشعور العربي إلى القوة والتعبئة لمواجهة النكبة، وليس ريب في أن من الصعب على شعر النكبة أن يؤدي مهمته في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير العربية إذا كان دعاة الانحلال ينفثون فيها سموهم الجنسية دون وازع أو رقيب، ويسكبون في أعصاب الشباب العربي نار الشهوة، بقصائدهم المفضوحة العارية، ومن أين للشباب العربي - وهو يخوض مع أمته معركة البقاء أو الفناء - أن يتجاذ ويتأسك ويستعد ليوم الزحف، إذا كان أدب التميع والشهوة يستأثر برأسه، ويستثير غرائزه ويهيج بهيمته، ويدفع به كالمجنون وراء كل أنثى يتخيلها «نبيذية الفم، جائعة الشفتين، زيتية العينين، طائشة الضفائر، مشنجة العروق، سعيرية النهدين، ملتهبة المفاصل إلخ...»

إن في إقبال الطبقة القارئة في العالم العربي على دواوين هؤلاء الشعراء، ورواج شعرهم في أوساط الشباب العربي، دليلاً على انتشار الوهن الخلقي وضمور الإحساس بالخطر الجاثم على الحدود، وعلى شعر النكبة أن يتنبه لهذا الداء ويكافحه، وأن يتبنى الدعوة إلى التعبئة الأخلاقية، لخلق جيل عربي مؤمن ينفر من الانحلال والتميع، ويحسن

المقاومة والصمود في وجه المغريات ، ويقدر على خوض المعركة القادمة وانتزاع النصر .

— ٦ —

ويضعنا البحث في خصائص شعر النكبة أمام مشكلة الشعر العربي المعاصر كله ، وجهاً لوجه ، من حيث الموضوع (الفكرة الشعرية الملتزمة) ومن حيث الصياغة (الشعر الحر) وبذلك نصل إلى أهم أثر للنكبة في أدبنا المعاصر ، شعره ونثره .

أما الدعوة إلى الالتزام فإن النكبة أكبر عامل في إثارتها ، ذلك أن النكبة قدّمت لشعرائها مادة واقعية غنية ، وشغلت بآسيها وويلاتها وأهوالها الضمير العربي ، فانطلقت الصرخة من أعماقه ، داعية إلى مطاوعة الأدب الحديث لواقع الأمة العربية المرير ، ليعيش الأدب تجربة الأمة ، ويكون هادفاً صادقاً حياً ، ويكون الأديب صاحب رسالة ، يستقي منها ، ليملاً مضمونه الشعري أو النثري منها ، لامن ذاكرته ومحفوظاته ، ولا من خياله ، فيربط بذلك بين انتاجه والحياة الاجتماعية التي يحياها .

لقد أثّرت الدعوة إلى الالتزام في أعقاب الهزيمة ، وشغلت - وما تزال تشغل - الأوساط الفكرية في العالم العربي ، وانقسم النقاد

إلى فريقين : مؤيد ومعارض .

فهناك فريق يؤمن بالالتزام ، ويبحث الكتاب والشعراء على اقتراض مادتهم من الموضوعات العربية « الصميمية » والواقع العربي الحاضر ، ويدعوهم أن يلتزموا في معالجتها برأي محدد في شجاعة وإصرار ، وأن يكون كل واحد منهم رائداً وقائداً نحو أهداف الأمة العربية الكبرى ومثلها الانسانية العليا^(١) .

وهناك فريق آخر ، يسخر من الدعوة إلى الالتزام ، ويرى أنها دعوة إلى أن ينقلب الأديب داعية سياسياً أو فيلسوفاً منهجياً ، يردد كاللبغاء ألحاناً « جاهزة » موضوعة ، وبذلك تضيع حرية الأديب ، وتُحد آفاقه ، وتطمس شخصيته ، ويفقد الأدب التنوع والانطلاق .

(١) - يجب أن نشير هنا الى دراسة للناقد الكبير الدكتور محمد مندور الخّص فيها نظراته التحليلية الثاقبة الى حركة تطور الشعر الحديث مرتبطاً بالعقلية العامة للشعب العربي ، فهو يرى أن الدعوة الى الالتزام في الشعر المعاصر رد فعل الدعوة إلى الشعر الوجداني التي أثارها العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري وشعراء المهجر في اول القرن العشرين ، والتي كانت بدورها رد فعل للنهج التقليدي الذي لزمته حركة بعث الشعر الحديث على يد البارودي وشوقي وحافظ (انظر : قضايا جديدة في أدبنا الحديث : ص ٧٧ - ٨١) . ونحن في كشفنا عن الصلة الوثيقة بين الدعوة الى الالتزام والنكبة لا نناقض نظرة الدكتور مندور ؛ بل نزيدها دعماً وإيضاحاً ، فالعقلية العامة للشعب العربي عندما دعت الى الالتزام وثارت على الوجدانية الذاتية كانت مدفوعة - في رأينا - بعامل جديد رهيب هو النكبة .

وفي اعتقادنا أن التجربة القاسية التي تعيشها أمتنا العربية منذ الكارثة تدعو الأدباء العرب إلى الهبوط من أبراجهم العاجية ، ليعيشوا على الأرض ، ويسهموا في تعبئة الفكر والوجدان الشعبي العربي ، ويساعدوا على نشر الوعي وتكامله ، ويمهدوا الطريق إلى وحدة الأمة وخوض معركتها الفاصلة القادمة ، وإن طبيعة المرحلة العvisية التي تجتازها الأمة العربية تنكر على الشعراء الوجدانيين انعزالهم عن المجتمع وانطوائهم على أنفسهم ، وتعيب عليهم أنانيتهم في قصر تفكيرهم على ذواتهم وتسخيرهم الشعر للتعبير عنها ، وتنعى عليهم هربهم من مسئوليتهم في علاج مشاكل مجتمعهم ورسم الطريق وتحديد الهدف أمام شعبهم ! وهكذا تكون الدعوة إلى الفكرة الشعرية الملتزمة دعوة إلى خلق أدب هادف يلعب دوراً قيادياً في معركتنا الكبرى .

— ٧ —

وأما قضية « الشعر الحر » أو « الشعر الجديد » فهي ثورة جامحة على التقاليد الشعرية العربية في الشكل والمضمون ، ومحاولة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي .

يقوم الشعر الحر على وحدة التفعيلة في القصيدة ، وتنوع عدد التفعيلات في كل بيت تنوعاً يوافق انسياب المعاني ، وتوزيع الموجات العاطفية

توزيعاً موسيقياً ملائماً ، واعتبار القافية عنصراً عفوياً غير ملتزم ولا متعمد ، وبهذه الصياغة الجديدة للشعر تتحطم وحدة البيت ويضيع استقلاله ، وتُحفظ للقصيدة وحدتها «العضوية» بتناسك أبياتها وترابطها ، ويتم عند ذلك تحرر الشاعر العربي من الأوزان التقليدية وقيودها العاتية ، ومن تحكم القافية الواحدة وطغيانها ، ويكون في وسعه أن ينظم الشعر في قوالب لا حصر لها ، وأن يصوغه صياغة حية متحركة . ولا يكتفي الشعر الجديد بهذه الحرية الفنية في الصياغة ، ذلك أن دعائه يرون في الشعر العربي الكلاسيكي عيوباً في المضمون يجب أن يتخلص الشعر الحر منها ، فالشعر القديم عندهم شعر إيجاز وتلخيص واكتفاء بـ «اللمحة الدالة» ، وهو لذلك يضيق دائرة التجربة ، ويجردّها من أشخاصها ، ويعبر عنها تعبيراً مكثفاً «مختظاً» - كما يقول الشاعر المجدّد صلاح الدين عبد الصبور - ، وهو شعر «تعقيلي» يسبغ على التجربة وقار العقل ويسلبها أروع ما فيها ، وهو انفعاليّتها وواقعيتها... ولهذا فالشعر الجديد عليه أن يمدّد التجربة ويبسّطها ويعني بإيراد الجزئيات الصغيرة التي تتلاقى ظلالها لتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقاً ووضوحاً وأصاله ؛ وعلى الشعر الجديد أن يكون صادقاً في تمثيل الجانب الانفعالي من الحياة ، وأن يعبر عن وقع الوجود وأحداثه على الوجدان دونما طلاء أو زيف !

إن الشعر الجديد إذاً هو انقلاب ثوري على الأوضاع الشعرية

التقليدية ، فليس عجيباً أن يهتم النقاد بدراسته ورصد أسبابه ، وقد انتهى بعضهم إلى أنه امتداد للرعدة العنيفة التي طرأت على المفاهيم وتناولت كل وجوه الحياة الانسانية . يقول الدكتور أمجد الطرابلسي : « يجب ألا ننسى أن هذا الانقلاب الثوري الذي أُرُعش معبد الشعر وعصف بهدوئه في هذه السنين الأخيرة ، لم يكن قاصراً على الشعر العربي ، وإنما هي رعدة عنيفة انسابت في كيان الشعر العالمي كله ، ولم يكن للشعر العربي بد من أن ينجر في هذا التيار طوعاً أو كرهاً ، لأن سرعة العدوى هي الميزة التي تميز زمننا هذا الذي نعيش فيه ، فلقد حمت الحدود نهائياً أمام الإشعاع الفكري ، وإن الفكر اليوم — أكثر منه في كل زمن مضى — لا يمكن أن يكون ضيقاً ومحلياً ..^(١) »

ولا ريب أن وراء الانقلاب دوافع أخرى أيضاً ، وهي دوافع كثيرة ومعقدة ، منها حقد بعض النفوس على التقاليد العربية — أية كانت — واندفاعها الضاري وراء تحطيم كل عقيدة ، فهذه شعوية خبيثة ماكرة تستر برداء التجديد وتتقنع بدعوى التحرر والانطلاق ! ومنها غرور بعض الناشئين من الشعراء ، يعجزهم إقامة الوزن وإخضاع القافية ، فيختصرون الطريق ، ويتمردون على القيود ، ويأتون بهراء

(١) — انظر مقالة الدكتور الطرابلسي (خواطر في شعرنا المعاصر) في مجلة

الثقافة دمشقية : السنة الاولى ، العدد الثالث تموز ١٩٥٨ .

لا طائل منه ، ويسترون ضعفهم وهزيمتهم وراء دعوى عريضة من التجديد والتهجم على (عبيد التقاليد) من الشعراء المطبوعين! ومثل هؤلاء الشباب المغرورين هم بحاجة إلى عصا ناقد صارم يغار على قداسة الفن ليصد هؤلاء المستهترين عن تدنيس هيكله ، ويُعلمهم أن الأدبُ عُسر لا يُسر ، وأن وراء كل أثر فني موهبة صامته عاملة وتضحية لاحد لها من سهر وعرق ودمع وصبر !

غير أن أهم دافع — في اعتقادنا — لهذا الانقلاب الثوري ينبع من النكبة . ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة ، طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلفت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في في اللا شعور نقمة مسعورة تستهين بكل القيم وتتجداها ، فالثورة على التقاليد الشعرية صورة للقلق النفسي والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشتمزاز من الماضي والحاضر .. صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة .. وانقسم النقاد أمام هذا الانقلاب فئتين أيضاً : فئة متشائمة ترى فيه اندفاعاً (لا واعياً) واستهتاراً مراهماً مغروراً ، وتساهلاً رخواً عاجزاً عن توفير القداسة للفن ، وأكثر هؤلاء النقاد المتشائمين — وعلى رأسهم الأستاذ عباس محمود العقاد — يرفضون أن يسموا الشعر الجديد شعراً ! وفئة أخرى متفائلة ، فهي لا تتوجس ولا تتخوف من هذا الانقلاب ، وهي ترى في الشعر الجديد محاولة تطورية ، ونزوعاً إلى

التجديد والحياة ، وفي مقدمة هؤلاء المتفائلين الدكتور محمد مندور الذي يدعو الناقمين على الشعر الجديد أن يبذلوا محاولات مخلصه لفهمه واستنباط مواطن الجمال فيه .

وفي اعتقادنا أن الشعر الجديد تجربة لا ضير منها ، فلاهي - وقد رأينا في الفصول السابقة من الكتاب نماذج ناجحة منها ، وسنرى في الفصل الأخير نماذج أخرى - « بهذيات المحومين » كما يسميها الشاعر المحافظ عزيز أباطة ، ولاهي أيضاً « بالثورة التي تجعل من عصرنا عصراً شعرياً ذهبياً » ، كما يقول الشاعر المجدد صلاح الدين عبد الصبور ؛ وليس من ريب في أن هذه التجربة إذا قادها الوعي الفني والقومي والإنساني بعمق وموهبة وأصالة ، كان لها مستقبل في صياغة الفكرة الشعرية صياغة جديدة حية متحركة ، وفي تطوير الشعر العربي الحديث كله .

— ٨ —

وخاتمة القول أن شعر النكبة هو لباب الشعر العربي المعاصر وجوهره ، وأن في دراسته ورصد تياراته وتقويم خصائصه دراسة ورصداً وتقويماً للاتجاه الرئيسي الفعال في الأدب المعاصر كله .

إذا كانت كارثة فلسطين القومية الكبرى نكبة للأمة العربية ،

وتجربة هزت أعماقها، وأظهرتها على أنها في حاجة إلى تطوير أوضاعها وتغيير أساليب تفكيرها وعملها وحياتها، فإنها نقمة ونعمة في آنٍ معاً! ذلك أن إيقاظ أمة غافلة من نومها السحيق العميق ولفتها إلى ضرورة البناء الجاهد الدائب لإزالة معالم النكبة، نعمة أية نعمة!

ولكن النكبة هي دون ريب نعمة خالصة على الأدب العربي المعاصر، والشعر منه بخاصة، فقد قدمت له غذاء دسماً ومادة لا تنفد، ودفعته في طريق التطور والتجديد والحياة!

إن الجيل العربي الذي عاش ليل النكبة، واستيقظ على فجائعها وأهوالها السود، لا يزال يرقب ميلاد الفجر، وإنه لقريب، وقد لاحت بشائره، وعلى شعراء النكبة أن يتابعوا إنشاد أقوى الألحان وأصفافها، وأن يزيدوا في تعميق الوعي القومي الإنساني المؤمن الحثير، وأن يضخّموا منابع الأمل والتفاؤل والثقة بالنفس العربية، وأن يدفعوا الطاقة العربية إلى إدراك ذاتها، والإيمان بماضيها ومستقبلها، وأن يهيئوها ويعدوها للقيام بدورها المنتظر في تطوير حاضرها، بخوض معركة الوحدة والثأر والتحرير.



الفصل السادس

منتخبات من ديوان النكبة

ديوان النكبة هو هذه المجموعة الضخمة من الشعر الذي صاغته النكبة بلسان عدد كبير من الشعراء ، وهو شعر يكاد يستعصي على الجمع والحصص ، ذلك أنه منشور في تضاعيف دواوين الشعراء المعاصرين للنكبة ، ومبعثر في بطون الكتب والمجلات والصحف ؛ ولما لم يكن من السهل على كل يد أن تصل إليه أو إلى الكثير منه ، آثرت أن أورد منه في هذا الفصل الأخير من الكتاب مختارات متنوعة ، تعين القاريء على توثيق صلته بشعر النكبة وتعميق فهمه وإدراكه لخصائصه الفنية ، وكل رجائي أن تزيد هذه المنتخبات دراساتي التخطيطية الجملة لشعر النكبة إيضاحاً وأن

تساعد على إبراز الأثر الكبير الذي تركته نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر .

— ١ —

كان لثورة فلسطين عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في الدور الأول من النكبة صدى لاهب في كل قطر من أقطار العرب ، ودوى صوت الشعر يحكي آلام النفس العربية وأشجانها ، ومن لبنان كان صوت الشاعر المسيحي الكبير بشارة الخوري يهز الضمائر ، ويمجد شهداء الثورة ومنكوبيها ، ويدعو الأمة العربية إلى الإسهام في البذل والفداء^(١) :

سائلِ العلياء عنّا والزمانا	هل خفرتنا ذمةً مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا	لم تزل تجري سعيراً في دمانا
ضحك المجد لنا لم يار آنا	بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عرس الأحرار أن تسقي العدى	أكؤساً خمرأ وأنعاماً حزاني

يا جهاداً صفق المجد له	لبس الغار عليه الأرجوانا
شرفاً باهت فلسطين به	وبناءً للمعالي لا يداني
إن جرحاً سال من جبهتها	لثمة بخشوع شفتانا

(١) - ديوان الهوى والشباب ص : ١٦٥ - ١٦٨ .

وأنيئاً باحتِ النجوى به عريماً رشفته مُقلتانا

يا فلسطينُ التي كدنا لما
نحن يا أختُ على العهد الذي
يثرِب والقدسُ منذ احتلما
شرف للموت أن نُطعمه
انشروا الهول وُصِّبوا ناركم
غذتِ الأحداثُ منا أنفساً
كابدته من أسيَ نفسى أسانا
قد رضعناه من المهد كلانا
كعبتنا وهوى العرب هوانا
أنفساً جبارة تأبى الهوانا
كيفما شئتم فلن تلقوا جباناً
لم يزدنها العنف إلا عُنفوانا

ثم إلى الأبطال نلمسُ جرحهم
ثم نجُوع يوماً من العمر لهم
إنما الحق الذي ماتوا له
لمسةً تسبح بالطيب يدانا
هبةُ صوم الفُصح هبةُ رمضان
حقناً ، نمشي إليه أين كانا

— ٢ —

ومن العراق علت صرخة الشاعر محمد مهدي الجواهري في الدور
الأول من النكبة ، يدعو العرب إلى القوة والسلاح ، ويحذّرهم من
الغفلة والنوم أمامَ نهم الطامعين في الاستيلاء على الوطن العربي ، بلداً
بعد بلد ، وينذرهم بأنهم سيضيعون فلسطين ومكة وبغداد ودمشق

إذا لم يفتحوا أعينهم على الخطر ، ويعدوا له ما يستطيعون من أسباب
القوة والصمود^(١) :

فاضت جروح فلسطين مذكرة	جرحاً بأندلس للآن ما التأم
يا أمة غرّها الإقبال ناسية	أن الزمان طوى من قبلها أما
كانت كحاملة حتى إذا انتهت	عضت نواجذها من حرقة ندما
سيُحقون فلسطيناً بأندلس	ويعطفون عليها البيت والحرما
ويسلبونك بغداداً وجأقة	ويتركونك لا لحماً ولا وضما
يا أمة لخصوم ضدها احتكمت	كيف ارتضيت خصيماً ظالماً حكماً
بالمدفع استشهدي إن كنت ناطقة	أورمت أن تسمعي من يشتكي الصمما
سلي الحوادث والتاريخ هل عرفا	حقاً ورأياً بغير القوة احتراماً
لا تطلي من يد الجبار مرحة	ضعي على هامة جبارة قدما
أقسمت بالقوة المعتز جانبها	ولست أعظم منها واجداً قسماً
إن التسامح في الإسلام ما حصدت	منه العروبة إلا الشوك والألماً
في حين لم تعرف الأقوام قاطبة	عند التزاحم إلا الصارم الخذما

فيا فلسطين إن نعدمك زاهرة
هزت رزاياك أوتاراً لناهضة
فلست أول حق غيلة هضما
في الشرق فاهتجن منها الشجول النغما

(١) - الفلسطينيات - مجموعة قصائد جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف :

ثار الشباب ومن مثل الشباب إذا ربيع الحمى وشواظ الغيرة احتدما
 يأبى دمٌ عربيٌ في عروقهم أن يصبح العربي الحر مهتضاً
 لا يأبهون يارهاب، إذا احتدموا ولا بمصرعهم إن شعبهم ساء

— ٣ —

ومن سورية كانت أنات شاعرها الكبير عمر أبي ريشة تروي
 منذ الدور الأول للنكبة حكاية مصرع المجد عند تربة المسيح وعيثان
 اليهود في الأرض المقدسة رغم أنف الرجال^(١) :

قف على تربة المسيح وشاهد مصرع المجد فوق طهر الرمال
 عاث فيها المشردون رضيعو لبن الذل في مهود الضلال
 كل يوم يرمون جمرةً بغى في هشم، من نقمة، ونكال
 والرجال الأباة رغم إباها تخفض الهام ، ياغرام الرجال!
 نكد الدهر أن ينال جبان من جسور، مشدد الأغلال
 وإذا الناب والمخالب طاحت لطم الذئب جبهة الرئبال !
 قل لمن يعرف الحسام بكفٍ به ضلالاً من أكبد الأبطال
 إن صوت الطعنات تنخر في العظم هم وتزجي الأهوال بالأهوال
 كصير المسمار في كف عيسى ليس تنسى صده أذن الليالي !!

(١) - عمر أبو ريشة : شعر ص ٢١٢ - ٢١٣ .

وعندما وقعت الكارثة سنة ١٩٤٨ وقضت الخيانة أن تقوم لاسرائيل
دولة في فلسطين وأن ييوء العرب بالمذلة والانكسار ، سالت دموع
الشاعر وانطلقت اللعنة من فمه تدمغ الجناة وتدينهم^(١) :

أمتي هل لك بين الأمم	منبرٌ للسيف أو للقلم
أثقتك وطرفي مطرق	خجلاً من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمي عابثاً	يبقايا كبرياء الألم
أين دنياك التي أوحث إلى	وترى كل يتيماً النعم
كم تخطيت على أصدائه	ملعب العز ومغنى الشمم
وتهاديت كأي ساحب	مترري فوق جباه الأنجم
حلم مر بأطياف السنا	وانطوى خلف جفون الظلم

أمتي ! كم غصة دامية	خنقت نجوى علاك في فمي
أي جرح في إباطي راعف	فاته الآسي ، فلم يلتئم
الاسرائيل تعلو راية	في حمى المهد وظل الحرم
كيف أغضيت على الذل ولم	تنفضي عنك غبار التهم
أوما كنت إذا البغي اعتدى	موجة من لهب أو من دم
فيم أقدمت وأحجمت ، ولم	يششف الثأر ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزاني واطربي	وانظري دمع اليتامى وابسمي

(١) - عمر أبو ريشة : مختارات ص ١١٠ - ١١٤ .

واتركي الجرحى تداوي جرحها وامنعي عنها كريم البسم
ودعي القادة في أهوائها تتفانى في خسيس المغنم !
ربّ « وامعتصماه » انطلقت ملء أفواه البنات اليتم
لامست أسماعهم لكنّها لم تلامس نخوة المعتصم !

أمّتي ! كم صنم، مجّده لم يكن يحمل طهر الصنم
لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما كان في الحكم عيّد الدرهم

أيها الجندي يا كبش الفدا يا شعاع الأمل المبتسم
ما عرفت البخل بالروح إذا طلبتها غصص المجد الظمي
بورك الجرح الذي تحمله شرفاً تحت ظلال العلم

وأقبل العيد عام ١٩٤٩ على الشاعر فتلقّاه حزيناً كسير القلب^(١) :

يا عيدُ ما اقترّ ثغر المجد يا عيدُ فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريدُ
وكيف ينشقّ عن أطياف عزّتنا حلمٌ وراء جفون الحق موءود
طالعتنا وجراحُ البغي راعفةٌ وما لها من أساة الحيّ تضميد
فللفجيرة في الأفواه غمّمةٌ وللرجولة في الأسماع تنديد !

(١) - عمر أبو ريشة: مختارات ص ١٠٤ - ١٠٦ .

فتلك رايتنا خجلى منكسة
ما بالها وثبت للثأر وانكفات
يا للشعوب التي قادت أزماتها
فأطمعت كل باغٍ في كرامتها
فأين من دونها تلك الصناديدُ
وسيفها في قراب الذل مغمود
على الليالي ، عباديدُ رعاديد
لا يُلطم الليث إلا وهو مصفود

ياعيدُ كم في رواي القدس من كبد
سالت على العزّ إرواءً لغصته
هيات لن يشتكي ما طلّ من دمها
سينجلي ليأنا عن فجر معترك
لها على الرفرف العلوي تعييد
والعزّ عند أباة الضيم معبود
فالحقد مضطرم والعزم مشدود
ونحن في فمه المشبوب تغريد !

— ٤ —

وكان الشعراء العرب في المهاجر الأمير كية يحيمون من وراء البحار
فلسطين وجهادها ، وييكون جراحها في صدق وحنين ؛ وفي الدور
الأول من النكبة اجتمع المهاجرون العرب في بروكلن عام ١٩٣٨
بمناسبة ذكرى وعد بلفور المشؤوم ، في حفل كبير ، وألقى أحد شعراء
الرابطة القلمية في المهجر ، السيد نسيب عريضة ، قصيدة تفيض
باللوعة والألم^(١) :

(١) - الأرواح الخائزة : ص ٢٦٠ - ٢٦٣

فلسطين ، من غربة موثقه
فتعلو وتهبط منا الصدور
ومن خلف هذا الخضم البعيد
نراعيك في الكربة المطبقة
وننهفو ، وأبصارنا مطرقة
نحييك بالدمعة المحرقة

جهادك أورى زناد النفوس
جهاد ملأت به الخافقين
وسطرت آياته في الخلود
فلسطين ، كم أرق بيننا
إلى ساحة المجد فيك يتوق
فيمسي على ثورة في الحشا
وتبكي المروءة مجروحة
لدمع اليتيم وأم اليتيم
حذار من الدمع يا أوصياء
ولو صادف الدمع أسطولكم
فطارت شرارتها مبرقة
فضاقت به القوة المرهقة
بأرواح أبنائك المزهقة
وبعض البلية ما أرقه
ولكن جبل النوى أوثقه
ويصبح والعين مغرورة
وتأسى الأمانى مخلوقه
وكظم الصدور على الخنقة
ففي لجته عطش المحرقة
لحفنا من الدمع أن يغرقه !

خفرتم عهد الولاء الجميل
ذبحتم فلسطين ، يا ويحنا
لوعدي لبلفور قد لفته
أبجتم حماها لمسترزقه

بني ربة البحر ، لا تشمخوا
سلوا الدهر ينبتكم عن ثقه

إذا نظر الكون شذراً إلينا فأعيننا تحسن الحلقه
وإن يرغب العسف في ذلنا فويل المذل وما أحقه

فلسطين ، أحييت أيامنا ومجداً لنا كان ما أبسقه
وبالدم وهو نجيع الحياة سقيت الثرى جرعة مدهقه
في الدماءك مهراقة فداءً لأجداننا المهرقه

فلسطين سيراً إلى المشنقه فلسطين صعداً على المحرقه
وموتي فلسطين! فالموت فخر فداء الحرية مطلقه !

— ٥ —

وحمل شعراء المهجر على « بلفور » ووعدده ، وسخروا من كرمه
الانكليزي حين يسخو على اليهود فيمنهم بقطعة أرض ليست من بلاده
كما يقول شاعر المهجر الأول ايليا أبو ماضي في قصيدته « فلسطين »
وهي أبيات تذوب ألفاظها سهولة ورقة وموسيقا ، وتتوئب معانيها
قوة وعنفاً ورجولة ، وفيها جانب من السند الجدلي الذي يدعم حق
العرب في فلسطين ، ويدك باطل اليهود ويهدم مزاعمهم وادعاءاتهم ،
وهذا شيء لم ينتبه اليه أكثر شعراء النكبة الآخرين ، ولم يُعْنُوا به ،

كما فصلنا ذلك في الفصل السابق^(١)، يقول أبو ماضي^(٢):

ديارُ السلامِ، وأرضُ الهنا	يشق على الكل أن تحزنا
فخطب فلسطين خطب العُلا	وما كان رزءُ العُلا هيّنا
سهرنا له فكأن السيوف	تحزّ بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعيناً	ترى حولها للردى أعينا
وكيف تطيب الحياة لقوم	تسدّ عليهم دورب المني
بلادهم عرضة للضياع	وأمتهم عرضة للفنا
يريد اليهود بأن يصلبوها	وتأبى فلسطين أن تدعنا
وتأبى المروءة في أهلها	وتأبى السيوف وتأبى القنا
أرضُ الخيال وآياته	وذات الجلال وذات السنا
تصير لغوغائهم مسرحاً	وتغدو لشذاذهم مسكناً!
فقل لليهود وأشياهم	لقد خدعتكم بروقُ المني
ألا ليت « بلفور » أعطاكم	بلاداً له لا بلاداً لنا
(فلندن) أرحب من قدسنا	وأنتم أحب إلى (لندن)
فليست فلسطين أرضاً مشاعاً	فتمعطى لمن شاء أن يسكننا
فإن تطلبوها بسمر القنا	نردّكم بطوال القنا
ففي العربي صفات الأنام	سوى أن يخاف وأن يجبن

(١) - انظر ما تقدم ص ٨٤ .

(٢) - الجائل : ص ٩٤ - ٩٦ .

وإن تجلوا بيننا بالخداع
 وإن تهجروها فذلك أولى
 وكانت لأجددانا قبلنا
 وإن لكم بسواها غنى
 فلا تحسبوها لكم موطناً
 وليس الذي نبتغيه محالاً
 نصحنكم فارعوا وانبدوا
 وإما أيتم فأوصيكم
 فإننا سنجعل من أرضها
 لنا وطناً ولكم مدفناً

- ٦ -

وللشاعر المهجري الياس فرحات شعر كثير في فلسطين
 ونكتبها، فإذا قرأنا ما قاله منه قبل التقسيم طالعنا زئير الشاعر العربي
 المعتز بأمته، الواثق بعزيمتها ونجدتها، وهو يهدد اليهود والطامعين ويتوعدهم
 بالزحف العربي لإنقاذ الأرض المقدسة^(١) :

لبيك لبيك ياريحانة العرب يابنت عدنان يامعصومة النسب
 النيل يزحف والعاصي ليشتركا والرافدين مع الأردن في الغلب

(١) - الحريف : ص ٦٢ - ٦٦

والرملُ أو مثله عدأً ستقذفه من الجزيرة ريحُ الحقد والغضب
 يا من طغوا وتمادوا عاقدين على وعدٍ سخيِّف بناءً شامخ القبب
 ستعلمون متى حاق البلاء بكم كم في الوعود وفي الآمال من كذب
 وكم يكلف تهيج الأسود وكم خلف العتو والاستفزاز من نوب
 ستندمون ولكن حين لا ندمٌ يجدي ولا أسفٌ ينجي من العطب
 سنغسل القدس من أوساخ أمتكم يا أمة الوسخ المطلي بالذهب
 والتلُّ، تل أيب سوف تتركها تلاً من الردم في بحر من اللهب
 بنيتموها ببال السحت عاصمة وليس يعصمكم منا سوى الهرب

صبراً فلسطين، من بدو ومن حضر ستُنصرين ، ومن ثاورٍ ومغترب
 إذا أباحك ضاديٌ لمغتصب فقد أباح كريم العرض والحسب
 فلما تم التقسيم وانتهت المهزلة الحرية بخيانة الملوك والرؤساء
 كان ألم الشاعر فرحات عميقاً حقاً ، ناعسه في ثورته العارمة على الخونة
 ودعوته الشباب العربي إلى التآرومحو العار^(١) :

أشباب يعرب قم فنحن هنا نلقى بلاءِ صدورنا المحنا
 قم نمحُ عاراً تحت وطأته كادت تمسّ جباؤها الدّما
 قم ردّنا للحقّ نعبده إنّا لنوشك نعبد الوثنا

(١) - الحريف : ص ٨٨ - ٩٠

لولا رجاءُ النازحين عن الـ أوطان فيكَ لأنكروا الوطنـا

قل للمغير على منازلنا كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حملت نفسك فوق طاقتها وركبت ويحك مركباً خشنا
إن لم يكن زمن يوافقنا للثأر منك سنخلق الزمنـا
فاجعل ضريحك جاهزاً أبداً وأعدّ نفسك واحمل الكفنا

وإذا لقيت ذوي الجلالة من ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكل ذي لقب خاو كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بألقاب لهم سمت وكرامة هزلت أسي وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا شـم الأنوف استنشقوا الدرنا

أهمدمين بسوء دخلتهم يوم الكريهة ماصلاحُ بنى
دُقوا وغنوا في مآتمنا لكم البداءة والختامُ لنا
فستأكلون أكفكم ندماً وستشربون دموعكم حزنا
وستدفعون لكل سائلة عن عرضها أعراضكم ثمنا

وحملة فرحات على الملوك وخياناتهم تذكرنا بسياط أبي سلمى التي

ألهب بها ظهورهم وكشف بها مخازيهم . يقول فرحات ^(١) :
 ملوكٌ ظنناهم صقوراً وعندما
 أباحوا لأجلاف اليهود جبانةً
 وعرضاً كأعلى الشمس أدناه أعجلت
 لهوا عن عصابت العدا باختلافهم
 مطامعُ أفرادٍ بميراث أمةٍ
 مبعةٍ يخشون أدن توحداً

ويقول فرحات أيضاً ^(٢) :

أرأيتُمُ الزعماء كيف تخاذلوا
 ذلّ الجميعُ على علي ألقابهم
 حملوا المعرة طائعين فحملوا
 نشرت مخازيهم على آفاقنا
 يتزاءرون كأنهم أسد فإن
 كبرت فريستهم على أقدارهم
 كثر الملوك فكل منطقة لها
 يمشي بها متعشراً فكأنه
 والكائدون لنا يرون هلاكنا
 أرأيتُمُ الأقيال والأمرء
 لأذل من وطى الثرى استخذاء
 أثقالها الإخوان والأبناء
 شرقاً وغرباً غيمة سوداء
 لمحو العدا انقلب الزئير مواء
 فتقاسموها بينهم أشلاء
 ملك يقيم الجند والوزراء
 أعمى يجر وراءه عمياء
 بعثاره فيصفقون دهاء

(١) - الحريف ص : ٩٩ - ١٠٠

(٢) - الحريف ص : ١٣٩ - ١٤٠

لقد كان الشعراء المغتربون في المهاجر تؤرقهم أنباء النكبة الفلسطينية منذ الدور الأول وما يلاقيه العرب في الأرض المقدسة من اليهود وعصاباتهم في ظل ظليل من حماية السلطة الانكليزية ، وكانت أمنية المهاجرين أن يظهر بين العرب صلاح الدين الجديد ليقود حركة الجهاد في فلسطين ، وهذا صوت الشاعر المغترب جورج صيدح يسأل سنة ١٩٣٨ أين سيف صلاح الدين؟^(١):

واها فلسطين كم غازٍ قهرت وكم	جيش رددت على الأسوار منهزم
حتى لطمت بكفٍ لاسوارها	شعب بلا وطن ، جند بلا علم
حشالة القوم من شتى الديار أتت	يرقع الدين تخفي وصمة النهم
ماهابهم ظل فخر الأنبياء على	تلك البقاع ومثوى أقدس الرمم
فأين سيف صلاح الدين يردعهم	أماله خلف في العرب كلهم

بني فلسطين ، سيلُ الغاصبين طما	كونوا له السدّ لا يعنو لمقتحم
نادوا الأخوة في العرباء قاطبة	واستجدوا بيني الأعمام في العجم

(١) - ديوان النوافل : ص ١٣٠ - ١٣٢ ، وقد جعل الشاعر ربيع هذا

الديوان كله لمناصرة لجان الدفاع عن فلسطين ، وهو مطبوع سنة ١٩٤٧

لعل غضبتكم تسري إلى رحمـ
كم في المهاجر من عين تراقبكم
وكم يد بالندى تسخو لنجدتكم
في الشرق أو تلتقي في الغرب في الذمم
وكم فؤاد بنار الوجد مضطرم
وكم لسان لكم يدعو وكم قلمـ

مهلاً خلائف (بلفور) الكريم لقد
حامي حمانا ، حمانا الله منك ومن
أكل شأنك ارغام الشعوب وأن
مهد النبوة نأبى أن تدنسه
جاوزتم شأوه في حلبة الكرم
وصاية فرضتها عصبة الأمم
تقوم فيها مقام الخصم والحكم
إن نام فيه بنو صهيون لم نتم

وفي عام ١٩٤٣ يزور بعض الأمراء السعوديين الولايات المتحدة ،
فيذكرهم الشاعر المغترب صيدح بمأساة البلاد المقدسة ، ويتغنى
بالدعوة الى وحدة العرب ، مسلميهم ومسيحييهم ، لإنقاذ الوطن
المهدد^(١) :

شعب صهيون إن جهلت علينا
إن للقدس راية ليس تطوى
ذاك « واد بغير زرع » سكتنا
جل مهد المسيح ما كان سوقاً
أوضاقت مجاهل الأرض عنكم
علمتك السيوف ما ليس تعلم
لا تطول الهلال ، أنياب أرقم
لنقيم الصلاة لادار أعجم
وضريح المصلوب ما كان منجم
أم حلال الشعوب فينا محرم

(١) - ديوان النوافل ص : ١٤٥ - ١٤٧ .

وعدوكم بنا والله وعدٌ بعباد للظالمين محتم

قل لمن دس في الصفوف شقاقاً بين طه وبين عيسى بن مريم
جحد الدين جاهد الوطن الغا لي سواء مقلنس ومعمم
علم الله ماغوى عيسوي إن دعاه الجهاد لبي وأسلم
والنبي الذي يحرر قومي قلت : صلى عليه ربي وسلم !

وتحل الكارثة ، وتصرع فلسطين ، وتقوم فيها دولة لاسرائيل ،
فيقول صيدح شعراً تلفحنا منه زفرات توج كالنار من قلب تدميه
الحسرة على الأرض العربية الشهيدة ، وفي قصيدة (الحجيج) التي
قالها في سنة ١٩٤٩ نكاد نلمس (نبضات) الألم وهي تضطرم في
أعماق نفسه ^(١) :

حبوا جناح الله واعتصموا يا قاضي الحاجات كن لهم
إن الحجيج يحثم أمل غير الحجيج يحزهم ألم
علم على الحرمين ذكرهم بالثالث الهاوي به العلم
بالمسجد الأقصى ، بجيرته بآتم في العيد تنتظم
بفواجع في الدور نازلة لم تنج من أهوالها الخيم
حملت فلسطين الصدور إلى قبر الرسول إليه تحتكم

(١) - ديوان نبضات : ص ٢٥-٢٦

تستشفع الأضحى وحرمة
في أمةٍ لليت زاحفةٍ
في موطن هانت به الحرم
والغاصبون بيتها ازدحموا...

الفأر يلعب في عرائنها
العابثون بحقنا اتحدوا
حتى متى هذا الخنوع لهم
ثوري عليهم إنهم رمم
قسماً بأوطانٍ أقدمها
للغرب أوضاعٍ إذا انحطمت
يا يوم يغلي في العروق دم
سنرى الدخيل يعض اصبعه
والمالكين هوت أرائكهم
والليث في الأوجار معتصم
والقائمون بأمرنا انقسموا
يا أمةً دانت لها الأمم
بش الشعوب تقودها رمم
إن جاز لي بالمقدس القسم
أضلاعُ إسرائيل تنحطم
ويهب للثارات منتقم
ندماً ، ولم يشفع به الندم
فبكوا لو اسطاع البكا صنم

ثم يرجع الشاعر النازح إلى وطنه ، وعار أمته في فلسطين يقض مضجعه ، وفي قصيدة (الغراب الغازي) يقص علينا الشاعر العائد قصة ذلك الغراب الذي اقتحم عليه غرفته في بحمدون ، فخيّل إليه أنه قادم من هناك .. من إسرائيل^(١) :

تطيرتُ من ناعب في الصباح
دخيلٍ على مهرجانات السنّا

(١) - أدبنا وأدباؤنا في المهجر الاميركية ص ٥٤٢ - ٥٤٣

مغيرٍ يمزق شمل الرياحُ إذا دافعتَه عن المجتنى
غمامة غمّ تجاه البطاح وراية شؤمٍ على المنحنى
تقرّز منه عيون الأقاح وتطبق أجفانها إن دنا
تسرّب في غرفتي واستراح فسرّب منه إليّ العنا
كأنّي اعتزلت حياة المراح خصيصاً لأخلو به ههنا
خلا الجوّ من هينات الصداح وحلّ النعيق محلّ العنا
أتأبى جوارَ الغراب الوقاح عجافُ الطيور وأرضى أنا؟
ومن أنبأ الطير أن اجتياح مقاميّ أيسرُ ما في الدنى؟
وأنّ اتسائي إلى يعرب

يحلّ مأوايَ للأجني !
وأنّي أهدّده بالفنا بكفي، وكفى خات من سلاح؟

أضيفَ الهنا إن بيتي المباحُ صغيرُ يضيق بضيف الهنا
وزادي - أعيذك منه - جراحُ أغمّس فيها فتات الضنى
شهرتُ عليك لساني الصراح فأعيا ، أطولُ منه القنا
سألتك بعد الغدو الرواح عسى البين يصلح ما بيننا
وماضرتُ لوزرت (تلّ) السفاح وعشّشت بين وكور الحنا
هنالك سرّبك يجني الرّباح ولا يُسأل اللصر عمّا جني
كرهتُك ضيفاً دجيّ الوشاح دجيّ الحواشي دجيّ المني

إذا وصفتك القوافي الفصاحُ دعوت عليها بأن ترطنا
تسيء وأنت طليق السراح ويرزح بالقيد من أحسنا
أحلتُ عليك النسور الغضابُ
ولكن .. حسدتك يا ابن التراب
ترود الأعالي وأبقى هنا فعندك ماليس عندي - سلاح !

— ٨ —

وليس غريباً أن يجمع بعض الشعراء بين نكبة العرب بفلسطين
الشهيدة ونكبتهم بالأندلس ، فهذا هو الشاعر اللبناني الاستاذ محمد
علي الحوماني يغمس ريشته بدم قلبه ليكتب سنة ١٩٥٣ موشحة حزينة
يسميا « أندلس الشرق »^(١) :

ويك يا جامعة العرب ذوى غُصن المجد ولما يكتس
أين من يومك في وادي (طوى) يوم (فرديناند) في الأندلس ؟

صيحة دوت على كل فم وقر الذعر بها سمع الزمن
فانبرى طوعاً لها كل كمي نافراً من (حلب) حتى (عدن)

(١) - ديوان النخيل : ص ٣٤ - ٤٥

ينشد العزة إرث المسلم باذلاً من دمه أعلى ثمن
يضرب الأرض ويستوحي السما أين من عينه بيت المقدس
هاتفاً بالعرب من كل حمى فصلي يا أرض منهم والبسي

حفل (اليرموك) بالصيد الألى حررت آباؤهم شطآنه
عانق الأردن فيه الموصلأ والشأم اعتنقت عثمأنه
ومشت مصر تقود الجحفلا تتقى شهب السما سودانه
فإذا غزاة سوداء الضحى وإذا اليرموك ضاحي الغلس
وإذا صهيون في شقى رحي يتلقى وثبة المفترس

زمجرت نجد وثارت جلق فاستفز الذعر قلب الرافدين
ومشى تحت العجاج الأزرق^(١) بالأناشيد تهز الخافقين
وتعالى للسماء الأبلق^(٢) هاتفاً بالأسد خلف الغوطتين
فاذا المسلم في بحر الدما ينشد العزة فوق القدس
وإذا يعرب يزجيهما الظما للمغيرين على نابأس

(١) - الأزرق نهر في شرقي الاددن

(٢) - الأبلق جبل في الإقليم الشمالي (سورية)

ثم ماذا كان ، والكون دجا والسماء امتلأت بالشهب
ومشى الجند يشق الرهجا باعثاً في الأرض مجد العرب
... كانت الهدنة ، يا بئس الرجا في الألى دانوا لها من كئيب
عفرّوا بالمشتري وجه الثرى وتولونا حفاة الأروس
فإذا الثعلب يحتلّ الشرى وإذا الليث حبيس النفس

من رأى الأتيم في عرض الفلاة نهب ثكل وشقاء ووصب
هتكت حرمتها أيدي الجناة من عدوياً : يهود وعرب
فاستوى الموت لديها والحياة تحت بؤسين : هوان وسغب
لا الأب الحارس يحميها ولا هي من أمتها في حرس
معقل الآباء إذ منهم خلا عاد بالأبناء واهي الأسس

يا مغيب الشمس جددت الأسى في فلسطين بما لم نطق
نكبات بذت الأندلسا إذ تبنّاها بنو المصطلق^(١)
كلما قيل انتهت قلنا عسى أن يعود الشرق غض الشفق
و«عسى» كانت ولم تبرح لدى كل جيل عدة المبتس
ذهب العمر مع القول سدى وسوى الأقوال لم نلتمس

(١) - بنو المصطلق : قبيلة يهودية في جزيرة العرب

كانت مأساة فلسطين تشغل منذ الدور الأول من النكبة أكثر شعراء العالم العربي ، فكانوا إذا بكوا في شعرهم مصائب أمتهم خصوصاً فلسطين بالدمعة السخينة ، وصرخوا في النائمين الغافلين صرخة الإنذار والتنبيه ، ففي عام ١٩٣٨ كان الأستاذ خليل مردم بك يستثير همّة العرب لمأساة اللواء وأحداث الاسكندرونة بقصيدة عامرة عرج في آخرها على فلسطين ، وثار على ما رآه من تخاذل العرب عن نجاتها ^(١) :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت لو يستشار بها الموتى إذا ثاروا
إن الحوادث لو أدركتم عبر فأن — لا أين — ألباب وأبصار
الرحم واشجة والدار جامعة فلم تقطع أرحام وأقطار
هنتم على كل شعب من تخاذلكم شأن العبيد وباقي الناس أحرار
لم تغن كثرتم عنكم كأنكم على المزيد - ولا أرقام - أصفار ..
تخربون بأيديكم بيوتكم جهلاً أكلكم يأعرب أغمار
ياليت شعري ماذا يستفزكم حمى مباح وإذلال وإفقار
أرى الحجارة أحمى من أنوفكم كم أرسلت شرراً بالقدح أحجار
إخوانكم في فلسطين تنالهم بالسوء والعسف أنياب وأظفار

(١) - ديوان خليل مردم ص ١٣٦ .

مهد المسيح ومعراج النبي وأو لى القبلتين بهالم يأمن الجار
كم ريع سرب بها بغياؤكم هتكت من حرمة الحرم القدسي أستار
أين السوابق للأجلى إذ نزلت إن الحوازب والأحداث مضار

— ١٠ —

وفي قصيدة من قصائد شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري ، التي
مجد فيها ثورة العرب، مثلت لعينيه فلسطين « وهي — كما يقول — ليست
لأهل فلسطين وحدهم ، وإنما هي للعرب كلهم » فراعته جراحها
وآلامها فقال ^(١) :

أيعيث اليهود في حرم القد	س فساداً والنوم يأخذ منا
لفظتهم جوانب الأرض شذاً	ذاً فتاهوا القرون قرناً فقرنا
ضجرت منهم الشياطين والإند	س فأنى نحنو عليهم أنى
احصدوهم حصد السنابل حتى	تتداعى صهيون ركناً فركننا
لو تمور السماء والأرض ماداً	نت فلسطين عنوة أو دنأ
أربعاً لو تطيق رجوع بيان	لتعالى البيان فيها ورتنا
فكأن الجبال تقذف حقداً	وكان البحار ترسل ضغنا

(١) — أنا والشعر : ص ٣٠

كم لفيفٍ على رفات لفيفٍ ضاحك في جهاده يتغنى
وغصون من الشباب نُضار كل غصن على الردى يتثنى
جثث بعضها يموج ببعض سافنات وجه الأباطح سفنا

- ١١ -

أما شاعر دمشق الأستاذ أنور العطار فله في فلسطين ومأساتها
شعر يلتهب عاطفة وأشواقاً ، فهو يناجي الربوع المقدسة نجوى محب
هائم له في جنباتها ذكريات عامرة بالحنين ، وهو يبكي مصرع البلد
الشهيد بكاء الحزين الواله^(١) :

فلسطين يادنيا الهناءة والحُب ويامهبط الإلهام والحلم العذب
عليك سلامُ العرب يندى مواجعاً ويشرب دمع العين غرباً إلى غرب
تطوف بك الذكرى ويهفوبك الهوى

كأنني منك الجسم خلواً من القلب
بنفسي وأهلي وهدّها وهضابها فيامهجت ذوبي على الوهد والهضب
حننا إليها وهي ملء ضلوعنا كأنّ رؤاها عن تباريحنا تنفي
ديار الهوى لازلت مخضرة المنى ترف على مغناك فيناثة العشب

(١) - قصيدة (فلسطين) له - مجلة (المسلمون) : المجلد ٥ العدد ٧ ص ٦٥ - ٦٧
وقد تفضّل الشاعر فأعارني المخطوطة الأخيرة المنقحة للقصيدة .

أراك بعين الحب طيفاً مجسداً يقاسمني كربني ويغفر لي ذنبي
فهل لقنا الماضي خيلاً على المدى وآفنا كالهذب يعلق بالهذب
أياروخة الأحباب لولاك ما ارتوت جفوني ولا روتك بالهاطل الصب
خيالك في عيني وذكرالك في في وبني منك ما يغري المحب وما يصي
وما ذكرتك النفس إلا تولت وهيمها برح فبات بلا أب

فيالك ذكرى ملؤها الوجد والأسى مضرجة الأعطاف بالنوح والندب
دهتك من الدنيا كوارث جمّة وألقت بك الوليات في مزلق صعب
وما غير الأيام مهما تفاقمت بأعظم مما ذقت من فادح الخطب
أغدو مطافُ المجد نهياً مقسماً ولا تغضب العرياء للنهب والسلب
وكانت إذا نابت دياراً أذية تفجرت الأرواح بالسمر والقضب
حنانك ربي مالىعرب لم تفق وما خلقت إلا من الشب والهلب
فما بالها إن حاجها البغي لم تهج وإن قرعت بالسب أغضت على السب
أحقاً توانت عن منازلة العدا

أصدقاً، وليت الصدق ضرب الكذب

وهل غصب العادي ديار أحبتي
وقرت نفوس العرب طوعاً على الغصب

أطل وقفة في الدار والثم تراها فمن حقها أن تلصق الخد بالترب

وناج دماءً أهرقت في رحابها وسلسل لها وجدى وصور لها حي
وقل يادياراً مضتها لأعجُ الأسى وأسلمها الباغي إلى الهم والكرب
أيا طول كربي إن خلصت إلى العدا ولم ترجعي يادارة العرب للعرب
فقد ينجلي الليل الطويل عن السنا وتزدهر الأعواد في المهمة الجذب
ويرجع وجه السلم جذلان ناضراً

بحرب تلف الأرض بالطعن والضرب
إذا لم يكن في السلم خير ونعمة فما الخير إلا في ممارسة الحرب
وقد كان لحصار الجيش المصري في الفالوجة ، وموقف الجيوش
العربية الأخرى المخزي منه صدى أسف ولوعة في العالم العربي ، وهذا
صوت الأستاذ العطار يلوم العرب على هذا التخاذل عام ١٩٤٩^(١) :

يا ثاراتِ يعربِ أين منا	من يُلي النداء يوم اللقاء
أيخوض القتال جيش وحيد	وجيوش العرباء كالرقباء
ليس كالحلف في اشتجار العوالي	واصطدام الأرزاء بالأرزاء
ليس نحيا في جفوة وخصام	لا يصون الوفاء غير الوفاء
لا يعيش الحمى على غنت الكر	ولا يُبتنى على البغضاء
بالدم اليعربي تُرعى فلسطين	ن وتروى الرمال في سيناء
فلنخض غير الجهاد لننقى	مالنا غير خوضه من نقاء

(١) - من قصيدة للشاعر في تكريم ايليا أبي ماضي سنة ١٩٤٩ .

لقد استأثرت خيام اللاجئين بأكبر نصيب من شعر النكبة ،
وغدت الخيمة السوداء رمزاً كريهاً للنكبة ، وهذه صورة رهيبة
لـ «خيمة البهتان» كما سميها الشاعر المصري المبدع الكبير الأستاذ محمود حسن
اسماعيل ، التقطها عام ١٩٥٢ « للاجئ » من عرب فلسطين الأحرار ،
يستصرخ أخاه العربي من وراء خيمته ، وقد هبت عليها أعاصير الشتاء ،
فراح بين السيل والويل يستثير جذوة النضال العربي في صدور
الأحرار ، ضد غدر السياسة ولؤم الاستعمار»^(١) :

أخي .. قد مزقت ريحُ الدجى بيتي وأيامي
وساقتني على الأرضِ بهذا الهيكل الدامي
وهذا الشبح المطرود في هذا الأسى الطامي
يُنَادِي : أين 'ملك' الله تحبَط فيه أقدامي
وأين الأرض تحملني وتدفن بعض آلامي
وبعض خطاي في هذا الدجى المتضجر الهامي ..

هنا في كُبوّة الأقدار بين السيل والويل

(١) - ديوان « نار وأصفاد » ص ٨١ - ٨٢ .

وبين عواء شيطان طريدِ الجنِّ محتل
يقعقع للرعود السود مأخوذاً من الهول
سمعتُ فحيح ثعبان على رثيٍّ منسلٍ
تدفق جسمه المقرور بين حفائر السل
وبين شتاء بستانٍ بدفء الموت مخضل

هنا في خيمة البهتان والطغيان والزور
لدى مأوى كلحد الميت في النسيان محفور
رُميت كدعوةٍ وقفت على درب المقادير
يصب التيه في خلدي خطا الظلمات في النور
فأشربُ حيرتي وبُكاي من كف الأعاصير
وأذرفُ أدمعي الخرساء في صمت الدياجير !

أخي .. قد غال ذنبُ الجوع أطفالي مع الفجر
وبعثرهم جنون السيل بين مداخل الصخر
فلا أدري لهم شجناً على نعشٍ ولا قبر
كما كانوا هنا .. عادوا بلا سكنٍ ولا عمر
ظلمتُ أنوحُ يارباه ! بعض نذاك للجمر ..
فجاء الموتُ يفغر فاه للظلمات والقفر !

سلوهم .. واسألوا ماشئتمُ الاسلام والعربا
وكيف على تراب الذل لم يتمزقوا غضبا
وكيف غدت فلسطين بهم تتجرع النوبا
تنوح على سلاسلها وتشكو القيد واللبا
وهم لمذابح الطغيان ساقوا اللهو واللعبا
وقالوا : الشرق اقلت : صحا على أفواهكم كذبا..

— ١٣ —

كان شاعر الدور الأول من النكبة إبراهيم طوقان ينفخ روح
المقاومة والجهاد في نفوس مواطنيه في فلسطين ، وقد أحس في سنة
١٩٢٨ بما تسرب إلى الروح الوطنية العربية من وهن وتشاؤم ، فأرسل
هذه الصرخة المتفائلة^(١) :

كفكف دموعك ليس ينفحك البكاء ولا العويل
وانهض ولا تشك الزمان ، فما شكا إلا الكسول
واسلك بهمة تك السيل ، ولا تقل كيف السيل
ماض ذو أمل سعى يوماً وحكمته الدليل

(١) - ديوان ابراهيم : ص ٤٦ - ٥٠

كلأً ، ولا خاب امرؤ يوماً ، ومقصده نبيلُ

أفنت يامسكين عمرك بالتأوه والحزنُ
وقعدت مكتوف اليدين تقول : حار بني الزمنُ
مالم تقم بالعبء أنت ، فمن يقومُ به إذنُ !

. . .

كم قلت : «أمراض البلاد» وأنت من أمراضها
والشؤم علّتها فهل قتشت عن أعراضها
يامن حملت الفأس تهدمها على أنقاضها
أقعد فما أنت الذي يسعى إلى إنهاضها
وانظر بعينيك الذئاب تعبُ من أحواضها

وطنُ يُباعُ ويُشترى وتصيح «فليحي الوطنُ» !
لو كنت تبغي خيرَه لبذلت من دمك الثمنُ
وَأَقَمْتُ تضمد جرحه لو كنت من أهل الفطن

. . .

أضحى التشاؤم في حديثك بالغريزة والسليقة
مثل الغراب نعى الديار وأسمع الدنيا نعيه

تلك الحقيقةُ والمريضُ القلبِ تجرحه الحقيقةُ
أمل يلوح بريقه ، فاستهدِ يا هذا بريقه
ماضاق عيشك لو سعت له ، ولو لم تشكُ ضيقه

لكن توهمت السقام ، فأسقم الوهمُ البدنُ
وظننت أنك قدوهنت فذب في العظم الوهن
والمرءُ يرهبه الردى مادام ينظر للكفن

. . .

حي الشباب وقل سلاماً إنكم أملُ الغدِ
صحت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدي
واللهُ مدٌّ لكم يداً تعلو على أقوى يدِ
وطني أزف لك الشباب كأنه الزهر الندي
لأبدٍ من ثمر له يوماً وإن لم يعقدِ

ريحانه العلم الصحيح ، وروحه الخلقُ الحسنُ
وطني ، وإن القلب يا وطني بحبك مرتين
لا يطمئن ؛ فإن ظفرت بما يُريد لك اطمأن

ولكن دون تفاؤل ابراهيم طوقان تلك العصابة من الزعماء

الذين ابتليت فلسطين بهم^(١) :

قد سقى الأرض بائعوها بكاء لعنتهم سهولها ورباها
وطني مبتلى بعصبة (دلاً لين) لا يتقون فيه الله
في ثياب تُريك عزاً ولكن حشوها الذل والرياء سداها
حسبوا في الرجال هل كانت الأنعام إلا مثلهم أشباها !

يارجال البلاد يا قادة الأمة ماذا دهاكم ودهاها
صكّت الألسنُ المسامعَ حتى لقيت من ضجيجكم ما كفاها
عرف الناس والمنابر والأقلام أفضالكم فهاثوا سواها
كلّكم بارع بليغ — بحمد الله — طبّ بجالنا ودواها
غير أن المريض يرقب منكم هذه الجرعة التي لا يراها
كان أولى بكم لو أن مع القو ل فعالاً محمودة عقباها

رحم الله مخلصاً لبلاد ساموه الدنيا بها فأباها
لو أتوه بالتبر وزن ثراها لأباه وقال : أفدي ثراها
أنفروا أيها النيام فهذا يوم لا ينفع العيون كراها
لاست أمة دهتها خطوب أرهقتها ولا يثور فتاها

(١) — ديوان ابراهيم : ص ٥٥ - ٥٦

وهذه أخت ابراهيم ، الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان ، تقول في قصيدة أسمتها « بعد الكارثة »^(١) :

يا وطني ، مالك يخني على	روحك معنى الموت ، معنى العدم
أمضك الجرح الذي خانك	أسأته في المأزق المحتدم
جرحك ، ما أعمق أغواره	كم يتنزى تحت ناب الألم
أين الألى استصرختهم ضارعا	تحسبهم ذراك والمعتصم
ما بالهم قد حال من دونهم	ودون مأساتك حس أصم
قلبت فيهم طرف مستنجد	فعزك المندفع المقتحم
واخجلت ! حتام أهواؤهم	تغرقهم في لجأ الملتطم
هم الأنانيون .. قد أغلقوا	قلوبهم دون البلاء الملم
لا روح يستنهض من عزهم	لا نخوة تحفزهم ، لا همم !
أحنوا رقاب الذل ، ياضعفهم	واستسلموا للقادر المحتكم

ستنجلي الغمرة يا موطني	ويمسح الفجر غواشي الظلم
والأمل الظالم مهما ذوى	لسوف يروى بلبيب ودم

(١) - وحدي مع الأيام : ص ١٢٧ - ١٢٨ .

لن يقعد الأحرار عن ثأرهم وفي دم الأحرار تغلي النقم
وفي قصيدة فدوى طوقان التي تسميها « نداء الأرض » صورة
شعرية رائعة لثورة الحنين في قلوب المشردين إلى الأرض السليبية^(١) :

تمثل أرضاً ثمتته وغذته من صدرها الثر شيخاً وطفلاً
وكم نبضت تحت كفيه قلباً سخياً وفاضت عطاءً وبذلاً
تمثل - وهو يلوب - انتفاض ثراها إذا ما الربيع أهلاً
وماج بعينه كنز السنابل يحضنه الحقل خيراً مطلاً
ولاح له شجر البرتقال وهو يرف عبيراً وظلاً

وهاجت به فكرة كالعواصف لا تستقر
تواكب تلك الطيوف تسير تلك الصور :
أثغصب أرضي ؟ أيسلب حقي وأبقى أنا
حليف التشرّد أصحب ذلة عاري هنا
أأبقى هنا لأموت غريباً بأرض غريبه
أأبقى ؟ ومن قالها ؟ سأعود لأرضي الحبيبه
بلى سأعود ، هناك سيُطوى كتاب حياتي
سيخنو عليّ ثراها الكريم ويؤوي رفاقي

سأرجع لا بدّ من عودتي سأرجع مهما بدت محنتي

(١) - وجدتتها : ص ٨ - ١٩ .

وقصة عاري بغير نهايه سأنهي بنفسي هذي الروايه
فلا بد ، لا بد من عودتي

وظل المشرّد عن أرضه يتمم : لا بد من عودتي
وقد أطارق الرأس في خيمته وأقفل روحاً على ظلمته
وأغلق صدرأ على نقمته

وما زالت الفكرة الثابتة تدوم محمومة صامته
وتغلي وتضرم في رأسه وتلفح كالنار في حسه
سأرجع لا بد من عودتي

وفي ليلة من ليالي الربيع الدفيئة
مشى ذاهل الخطو تحت النجوم المضيئة
وراح يدور بأفق خواطره الشاردات
يلاحقهن ويمعن بعداً مع الذكريات
ويُبصر يافاً جمالاً يضيء على الشاطئ
ويسمع غمغمة الموج في بحرها الدافئ
ويلمح بالوهم طيف القوارب والأشرعة
تقبل وجه الصفاء في الزرقة المترعة
ومرّت على وجهه - وهو يحلم - نسمة

مضمخة بشذى البرتقال تعطر حامه
وكانت كهمس تحجب مصدره واستتر
كهمس من الغيب وافاه يحمل صوت القدر

وأوغل تحت ضياء النجوم يمشي ويمشي كمن يحلم
وكان بعينه يرسم شيء ثقيل كآلامه ، مظلم
لقد كان يرسم سبع سنين انتظار طواها بصير ذليل
تخدره عصبه المجرمين وترقده تحت حلم ثقيل

لقد كان يرسم سبع سنين طوال المدى عاشها في سؤال
متى سأعود؟ وكان الجواب صمتاً يمد رهيب الظلال
وما زال يمشي سليب الارادة تدفعه قوة لا ترد
إلى أين؟ لم يدرك ، كان الحنين نداء ألح به واستبد
كأن من الأرض ، من أرضه تصاعد يدعوه صوت شرود
يُجلبجلب في قلب أعماقه ويجذبه ما وراء (الحدود)
هناك تناهت خطاه ، هناك تسمّر عند السياج العتيق
هناك تيقظ وعياً رهيفاً وحساً عجيب التلقي دقيق
وفي نفسه كان يزدحم الدمع والشوق والسورة المفعمة
ورجع نداء ملح قوي وموجة عاطفة مبهمه
ورائحه الأرض في قلبه مزيج حنان ونفح شذي

وللصمت من حوله ألف معنى يعانق ألف شعورٍ خفيٍّ

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها
يعانق أشجارها ويضمّ لآلي حصارها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدّاً وفم
وألقي على حضنها كلّ ثقل سنين الألم
وهزّته أنفاسها وهي ترعش رعشة حب
وأصغى إلى قلبها وهو يهمس همسة عتب !
— رجعت إليّ ؟

— رجعتُ إليك وهذي يدي
سأبقى هنا ، سأموت هنا ، ههنا مرقدي
وكانت عيون العدو اللثيم على خطوتين
رمته بنظرة حقدٍ ونقمة
كما يرشق المتوحش سهمه
ومزق جوف السكون المهيب صدى طلقتين

.

بدا الفجر مرتعشاً بالندى يذرذره في الربا والسفوح
ومرّ بطيئاً الخطاف فوق أرضٍ مضمخة بنجيع نفوح
تلف ذراعين مشتاقتين على جسد هامدٍ مستريح

أما شاعر النكبة أبو سلمى ففي كل قصيدة من قصائده فيها حملة على الملوك والرؤساء العرب الذين خانوا أمانة فلسطين وأعانوا على تشريد شعبها . يقول في إحدى قصائده لو اُحد من أولئك الملوك ^(١) :

يا عارياً من ثياب المجد كيف ترى أرض الخلود وقد ضاقت بك السبيلُ
هذي فلسطين هل أشجتك تربتها تبكي الأحياء من غابوا ومن رحلوا
وهل شجاك الدم المطلول تسفحه أيدي الجناة وقد عاهدت من قتلوا
تبكي المروءات مرخاةً غدائرها وما انتخت للجهاد البيض والأسل
تبكي العذارى وأذبالاً مطهرة لم يحم تلك الذبول الفارس البطل
تبكي دويلات سوء سميت دولاً وخلف كل رداء يختفي هبل
حرباً على الشعب ما زالت مضلة لا كانت الحرب بل لا كانت الدول

قال الملوك : غداً نحمي دياركم ليت الأذلاء ما قالوا وما فعلوا
وعلمونا بساح المجد ننزلها إذا بهم ساعة الجلى هم العلل
قالوا : الكرامة ! قلنا أين صاحبها؟ قالوا : الرجولة ، قلنا أيهم رجل ؟
باعوا فلسطين فلتهنأ ضمائرهم أما تراها على (الدولار) تشتعل

(١) - أغنيات بلادي : ٨٥ - ٨٦ .

ويقول أبو سلمى في قصيدة أخرى (١) :

قالوا : الملوك ! وكيف أجعلهم هم شرّ دوا أهلي وهم نكبوا
شادوا القصور على جماجمهم وعلى الدسائس حولنا دأبوا
هل 'تعبد الأصنام في زمن، تهوي به الأصنام والنصب
يتستّر المستعمرون بهم هل يستر التضليل والكذب
لا يختفي استعمارهم ولهم في كل قصر داعر، ذنب
الشعب يعرف باسم من حكموا ومن الذين وراءهم ركبوا
ومن الذي بالمجد منتقب ومن الذي بالعار ينتقب

قل للذين جنوا على وطني ما بيننا الأيام والحقب
من قبلكم مرّ الطغاة بنا هل تعثرون بهم ؟ لقد ذهبوا
عصفت بهم نارٌ مقدسة وإذا بهم لجهنم حطب

ويثور أبو سلمى على من يتهم الفلسطينيين بالتقصير في الحرب
وحماية الوطن ، ويرد عليه معدداً توضيحات الشعب الفلسطيني العربي
وجهاده (٢) :

قسماً بالسفوح إنا حملنا يافلسطين في هوائك العذابا
وإذا ما سألت عنا اتسبنا وأيننا إلا إليك اتسبابا

(١) - أغنيات بلادي : ص ١٠٥ - ١٠٦

(٢) - أغنيات بلادي : ص ١٢٥ - ١٢٨

ما بُعدنا عن طيب أرضك إلا
وزرعنا الأشواق في كل أرض
وافترقنا - وأنت في القلب - أعوا
والتقينا على ملاعبك السم
وسجدنا نقبلُ الحجر الأس

زادنا البعد من ثراك اقترابا
ليتها أنبتت قنأ وحرابا
مَ دهورٍ مذلةً واغترابا
حقة شيباً بعد النوى وشبابا
ودوالرمل والحصى والترابا

هذه دارنا فيا وحشة الداء
لاتسل أين أهلها ، فالخيام الس
حسبوا اللاجئين في كل قطر
تاجروا باسمنا وباسم فلسطين
ثم قالوا : خان البلاد بنوها
نحن من نضر العروبة في الد
هذه دارنا جبلنا ثراها
إننا وحدنا فديننا حماها
وسرى حبها مع الدم ناراً

ر إذا لم تستقبل الغيابا
مود شقت صدر الليالي انتحابا
— وهم بين أهلهم — أغرابا
ن فكانوا العداة والأصحابا
كذبوا . . . إننا أعز جنابا
يا فرفرت على الورى أطيابا
بالدم الحر فاستحال ملابا
وحينا حدودها أحقابا
وبذلنا لها النفوس احتسابا

نحن من عطر الميادين أمجا
ونزعنا للظلم ظفراً وظفراً
يوم كنا نصارع البغي والعدو
ورفعنا يعض الجباه صباحاً

دأ وأعوى المستعمرين طلابا
وحططنا للوحش ناباً فنا
وان كانوا للأجنبي ذنابي
ورأينا جباههم أعتابا

هتفوا للوغى ولما التقينا حاربونا وحالفوا الاتسدا
ثم راحوا يدللون علينا يوم صرنا بفضلهم أسلابا
سجنوا اللاجئين لما رأوهم لا يزالون يطلبون الحسابا
ظالموهم ، فكيف يُغفون يوماً وفلسطين تقرع الأبوابا
ويقول أيضاً في تمجيد نضال الشعب العربي الفلسطيني^(١) :

هذه الحرية الحمراء ما عرفت إلا فلسطين مراحا
وتقلبنا على نيرانها وصهرناها قلوباً وصفاحا
رقص النور على ملعبها والهوى غنى لها والسفح باحا
بكت الأحرار في أوطانها كيف لانبكي حمانا المستباحا
شرّدوا أهلي وصحيي فعلى كل درب شبح النكبة لاحا
خيم الظلم على داراتهم فكأن الظلم لا يبغي براحا
عصف الليل بأنوارهم وتوارى النجم والفجر أشاحا
الخيام السود تبكيهم فهل تسألون اليوم عن أهلي الرياحا
دُمهم سال على كل ثرى أترى يصبح ريحاناً وراحا
خضّبوا آمالهم وانطلقوا يلهبون الكون ثاراً وطماحا
ناحت الأرض على أربابها أين من يسمع من أرضي النواحا
وعندما تمت الوحدة بين مصر وسورية ذكر أبو سلمى جراح

(١) - أغنيات بلادي : ص ١١٣ - ١١٥

فلسطين وقد مرَّ على التقسيم عشر سنين^(١) :

يارفاقي جبل النار دعانا	الهوى هذا الذي هب هوانا
والنسيات التي مرَّت بنا	حملت من أرض «حطين» شذانا
وعلى كل طريق عبق	من صباننا وشُجاع من دمانا
وإذا ما لفظت أهلي الرِّبا	هتفت من خَلل الدمع ربُّانا
أي سفح لم يسر فيه لظى	من فلسطين ولم يعرف سرانا
أي شعب خفقت أعلامه	حرةً إلا على دامي خطانا

باسم أطفال بلادي زحفوا	في الدروب الحمر ذلاً وهوانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا	بالخيام السود تبكيهم زمانا
باسم أهلي في بقايا وطني	باسمهم في طرق البؤس حزاني
باسمهم في كل أرض مثلوا	شاهداً قد صبَّه الظلم عيانا
واسمهم يهدر في شعري دماً	ودموعاً وسعيراً ودخانا
باسمهم 'نقسم' ألا نلتقي	في غد إلا على طهر ثرانا

يا فلسطين مضت عشر وفي	كل يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا	عرباً قلباً ووجهاً ولسانا

يا أحباي مضت عشر ولم	تلثم الأترب المفدَّى شفتانا
----------------------	-----------------------------

(١) - أغنيات بلادي : ص ٦٧ - ٧١

وشظايانا اللواتي وحدثت بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا

- ١٦ -

ولشاعر النكبة يوسف الخطيب صرخات متمرده ، يثور فيها على
استكانة الشعوب في الشرق وخضوعها للذليل للقوة^(١) :

الرعا ع المسكين في الشرق ينقا	د أمام القوي كيف يشاء
يستوي عنده المدجل واله	دم ، ما نبتنيه والبناء
ياريا ح الجحيم هـي علينا	والفحينا ، فانتا جنباء
تشتكي الأرض من روائح قتلا	نا عليها ، ويشمئز الهواء
كل شبر والذل يصرخ فيه	وسياط الغربي والأشلاء
كالقطيع الذي يساق إلى المذ	بح رغماً وكله استخذاء
كالقطيع الذي يساق مع الغر	ب وطوراً يسوقه الزعماء
أين « بترولنا » أنحرق فيه	ليعيش الأسياد والأمراء
أتمنى لو كنت عود ثقاب	في حقول البترول يوماً يضاء
أتمنى للشرق يغدو رماداً	من لهبي وتُحرق الصحراء !

(١) - العيون الظماء للنور : ص ٤٢ - ٤٤

ويوسف الخطيب هو الذي يحكي انا حكاية هذا اللاجي :^(١)
يقولون : كان فتى لاجئاً إلى خيمة في الربا مشرعه
تُطل بعيداً وراء الحدود على الجنة الخصبة الممرعة
وكانت له ذكريات هناك مجنحة حلوة ممتعه
وملهم صبا شاعري الدروب وكوخ يطل على مزرعه
وكم أرقت ناظريه الطيوف وطيف الرقاد جفا مخدعه
يعيش على حلم أمس الذي تولى ويُقسم أن يرجعه
يقولون : كان يُرجى المات إلى يوم ثار ، إلى موقعه
وكان نداءً ، وكان نفيراً وأسلم لله ماودعه
تقحم هول الردى راسخاً كما يرتقي النسر في الزوبعة
فلو ضيغم مر من قربه تمنى لو ان له مصرعه
ويروون : لآلم هاجه ولا الجرح في قلبه أوجعه
سوى أن عينيه قد غامت وأسبلتا في الثرى أدمعه
أيكي على وطن ضائع قضى قبل أن يجتلي أربعه
أيكي حبيباً له في الخيام قُبل الرحيل ، وماودعه !
يقولون : لما هوى مشخناً وشد على جرحه أضلعه
وأوشك يخبو السراج ، سوى ثواب ضباية مسرعه
تلفت ملء الربا والوهاد يحدق في وطن ضيغه

وأغرز كفيه في حفتي^١ تراب ، تكونان ذكرى معه !

— ١٧ —

ولشاعر العودة هارون هاشم رشيد شعر كثير يموج بالحماسة والعزيمة والإيمان بالنصر والعودة^(١) :

أخي في الخيمة السوداء في الكهف
أخي في الجوع في التشريد في الخوف
أخي في الحزن في الآلام في الضعف
أخوك أنا برغم الظلم والإرهاق والعسف

أخي من نحن إن سرنا على الدنيا بلا وطن
وإن عشنا على صدقات قاتلنا ، على المنن
وإن جار على الأقداس عسف الظالم النتن
وإن لم نتنفض للثأر رغم البؤس والمحن

أخي لن يغمض الجفن على حق ولا ثأر
ولأن ترجع الأرض بغير الدم والنار

(١) — عودة الغرباء : ص ٨٠ - ٨١

هناك بوثة تعصف من دارك أو داري
هناك غداً سنشعلها ونمحو لطخة العار

ولم يفقد شاعر العودة إيمانه بالثأر والنصر ، على الرغم من احتلال
اليهود لمدينته المرابطة في خط النار (غزة) أثناء العدوان الثلاثي ،
وفي قصيدته (أرفع يديك) يرسم الشاعر صورة رهيبة للعسف الصهيوني
إبان الاحتلال ، فقد كان اليهود يوقفون الرجال والنساء في غزة رافعي
الأيدي إلى الجدران ويطلقون عليهم النار ^(١) :

أرفع يديك ! وصوتوا ظلاماً بنادقهم إلى
أرفع يديك ! وكادوا أقداراً — أن يغمي عليّ
أرفع يديك ! وددت لو قطعوا يدي

ووقفت في عيني نار واشتعال
وشريط أحداث تمرّ وذكريات في اتصال
بلدي يدنسه اليهود! أهذه عقي النضال
عقي المرابطة الطويلة في الخنادق والتلال
بعد الخيام الباليات وبعد أعوام طوال !

واسودّت الدنيا وما زالت يداي إلى الجدار

(١) — غزة في خط النار : ص ٤٦ — ٤٨

والمجرمون يصوبون لنا بنادق الاحتقار
وأنا وصحي في انتظار
طلقات نار ... تمضي بنا .. طلقات نار

ومشوا وما زال الجدار ..
باق يحدق في انتظار ..
بركان نار .. ولهيب نار ..

وعندما أعلنت الوحدة بين سورية ومصر كانت فرحة شاعر العودة
طاغية وهو يرى جماهير اللاجئين تزحف من الخيام والكهوف تاركة
بؤسها وآلامها ، لتغني نشيد الوحدة وتباركها^(١) :

يا إخوتي المشردين في الظلام التائهين الضارين في القتام
الهائمين في الدروب السابحين في الندوب
ألا ابشروا .. ألا ابشروا بالعودة وهللوا وكبروا للوحدة
يا إخوتي

يا إخوتي غداً ستنهال الحدود وسوف لا يكون في بلادنا يهود
وسوف يشرق الضياء على مرابع الفداء
فأبشروا واستبشروا بالعودة وهللوا وكبروا للوحدة
يا إخوتي

(١) - أرض الثورات : ص ١٠٢ - ١٠٥

يا إخوتي في فرحة العمر التي تزورنا قد أوردت وأينعت واستبشرت صدورنا
بعد السنين العابسات بعد الليالي الحالكات
فأبشروا واستبشروا بالعودة وهللوا وكتبوا للوحدة
يا إخوتي

— ١٨ —

ومن الشعراء الذي وقفوا شعرهم على العودة الشاعر علي هاشم
رشيد شقيق الشاعر هارون هاشم رشيد ، وفي ديوانه (أغاني العودة)
نجد تلك الروح المتوثبة المشتعلة شوقاً إلى الوطن المغصوب ، وها
هو ذا صوته يهز النيام ويدعوهم إلى المعركة (١) :

أخي والرياح تهز الخيام أخي والجباه كساها الرغام
أخي والظلام تلاه الظلام ألا فاسمعوا صرختي يا نيام
إلام المنام إلام المنام !

أخي هزنا الشوق للموطن ونحن نعيش بلا مسكن
تحامل على جسمك المثخن تقدم تقدم ولا تشن
وصح يا نيام إلام المنام !

(١) — أغاني العودة : ص ٢٧ — ٣٠

أخي لا يرُعك عواء الذئابُ فهل يرهب الليث نبسح الكلابُ
أخي وليكن لك ظفرٌ ونابُ وجالد به وقع تلك الحراب
إذا ما سمعت إلام المنام !

أخي إن صلاتك رمال الفلاة تذكر فلسطين مهد الأباه
ووجه إليها قيل الصلاة صلاة تطهر تلك الجباه
وقل يا بلادي إليك السلام

فلسطين إنك روح ودمُ فلسطين إنك نبع الشممُ
عرفنا بأرضك طعم الكرم فلن نخفر اليوم تلك الذمم
فإن الكريم يعاف الملام

- ١٩ -

أما عيسى الناعوري فهو من شعراء النكبة الذين بكوا مأساة
بلادهم بفورة ملتاعة من دم قلوبهم ، وصبوا في قصائدهم لهيب النقمة
والثورة في أعقاب الكارثة ، وهذه « صرخة أسي » مريرة يرسلها
الناعوري بعد الهدنة عام ١٩٤٩^(١) :

سقطت يضرجها النجيع على الثرى ومضت كحلم كان في الأحلام

(١) - أناشيدي . ص ٦٥ - ٦٨

وتمزقت بيد الحياة والحفا أعلامها الغراء وهي دوامي
وتفرقت عنها الصحابُ وأغمدت فيها السيوف وهنّ بعدُ ظوامي
أعراسها انقلبت مآتمُ مرةً دميت بهنّ حناجر الأيام
وقبابها . . . لله ما لقبابها عاد الشموخ بها ذليل الهام
صوت الأذان أبحُ والأجراس ما عادت ترنّ كعهدها من عام
ضاعت فلسطين الشهيدة وانطوت واحسرتها لعدها البسام
قد سلّمتها لليهود عصاةً رعدية برئت من الاسلام
عاث الغريب بها وشرّد أهلها فتفرقوا في الأرض كالأغنام
يا للعدلة ! لم يعد في أمّتي رجلٌ لأعراض العروبة حام
وفي عام ١٩٥٣ كانت نقمة الشاعر لا تزال مستعرة، فإذا سمع من
حوله يتحدثون عن وعي الشعب العربي وتأهبه للثأر والعودة، أرسل
صوته الساخر من أحلامهم^(١) :

حلم ! وما أكثر أحلامنا سئمت من تكرار أمثاله
حلم لقاءُ المجد من بعدما وقع شعبي صكّ إذلاله
في ساحة كان لنا نصرها فحولوه للعدا صاغرين
وغادروا الساحة لا عودة تُرجى، ولا ثأر، ولا هم يحزنون
دعني من الأحلام يا صاحبي وأملِ الثارات والنصر

(١) - أناشيدي : ص ٥٧ - ٥٩

فليس في قومي ذو عزةٍ تدفعه العزةُ للشارِ
قادتنا ثاراتهم بينهم ليس لهم عند العدا ثارُ
فإن دعا المجد لساحة كلهم يوم الوغى العارُ

هم كلهم أذئاب مستعمر عباد كرسى ودولارِ
من أجلها ضحوا بأوطاننا وشرّدوا أمة أحرارِ
سادة ذلٍ طالما صفقت أكفنا مكبرة ذلهم
باعوا إلى الشيطان أرواحهم ونحن بعنا نبلنا قبلهم

نحن ! ومن نحن ! سوامُ فما ندرك معنى العزة السامية
نثغو لراعينا وجزارنا بنعمة واحدة راضيه
الوعي، وعي الشعب كذب فما في شعبنا وعي وأحرارِ
نمجد الطاغى ونعنو إذا ما ساقنا للذل سمسارُ

سته أعوامٍ تقضت على مأساتنا الكبرى وتشريدنا
لا اللدّ والرملة قد عادت لتسمعا وقع أغاريدنا
ولا ضواحي القدس عادت لنا والكرمل العالي وعكاهُ
وشط يافا لم يعد عهده فما يحيننا به الماءُ

خيامنا تملأ رحب الفضاء وقوتنا لقمة إحسانِ
أذلة نحن ، وأوطاننا يمرح فيها خصمنا الجاني

دعني من الأحلام يا صاحبي وأمل العودة للدار
مادام يرعى أمرنا قادة تعشق قيد الذل والعار

— ٢٠ —

وحسن البحيري من الشعراء الذين عاصروا النكبة في دورها ،
وقالوا في كل حدث من أحداثها، وها هو ذا قبل التقسيم يعاهد تربة
فلسطين أن يسقيها من دمائه^(١) :

أيا وطني ، والعلام من أسي إذا ذكروك لها تطرق
ترابك.. هذا التراب الطهور وفي روحه عطش مزهق
سأسقيه من نفثات اللهب وفيض الدماء حياً يغدق
لأنبت حريتي في ثراك وأجعل أدواحها تُورق
فتزهر فيك غصون السلام ويبسم في ظلها الزنبق
فلما تم التقسيم ودوت الرصاص في الأرض المقدسة انطلق صوت
الشاعر يهيب بكل عربي أن يخوض المعركة :

أخي اسمع نداءً لهيف الصدى ترامى على خطرات المدى
فكاد يهز روائي الجبال وقد مسها مغوراً منجداً

(١) - المختارات من شعر البحيري نقلتها من مخطوطاته التي تفضل مشكوراً
بإعانتى بإها .

هو الغوث من أسبق القبليتين
فقم بالسلاح نسر للكفاح
لنا النصر لا لفلول العدا
فنحن بني العرب من أمة
ونحن على ذروة الخافقين
دعاني وإياك مستنجدا
فأكرم بساح الوغى موردا
ضمناً له يومنا والغدا
مؤثلة في العلا محتدا
وطئنا بأقدامنا الفرقدا

أخي قبة القدس لو أنصفت
وطفنا بصخرتها كالخطيم
فآفاقها أطلعت في الزمان
وتربتها أنبت للأنام
فلسطين في الدهر أم الجهاد
ولولا بنوها لنام الكفاح
فهم أيقظوا الشرق من غفوة
وهم جمعوا العرب في وحدة
لرحنا لها ركعاً سجداً
لنستلم الحجر الأسعدا
بدور التقى وشموس الهدى
فروع الجدا وأصول الندى
وبنت الجلاد وأخت الفدا
وما مد يوماً لنصر يدا
مضى في كراها مدى سرمدا
تلم من الشمل ما بددا

أخي قم بنا مثل حد الحسام
قتل أيب لنا موعد
فهب كليث الشرى واثباً
ألا امض بنا مثل نسر السحاب
على طائرات تروع النجوم
إذا هو من غمده جردا
ولن نرتضي غيرها موعدا
فلم يبق فينا لصبر شدا
وحوت العباب وريح الودى
وفي دارعات تخيف الردى

لنهدمها حجرة حجرة وتركها صفصفاً فدفدا ..
فلما انتهت المسرحية الحربية بما شاءت لها الحياة أن تنتهي صرخ
الشاعر من أعماق فؤاده :

إلهي زلزل الحقّ وناء فؤاده المُجْهِدُ
وكادت ناره تجبو ، وكادت ريحه تخمد
وكادت كفّ اسرائيل تمحو ما بنى أحمد
فإن لم يُصرع الباطل إزهاقاً ولم يُلحد
وظل البغي في دنياك ينضو سيفه المغمّد
فبعد اليوم لن تُرجى ، وبعد اليوم لن تُقصد
وبعد اليوم لن تُخشى ، وبعد اليوم لن تُعبد
وبعد اليوم لن يُركع إسلاماً ولن يُسجد !

والشاعر البحيري هو اليوم « لاجئ » في دمشق ، يتابع إنشاد
الحان الباكية على وطنه السليب ، فإذا ثار في قلبه الحنين إلى دياره
صوّره في مثل هذه المناجاة الهامسة بين حمامتين :

سألت ذات حنين أختها والدجى يعقد أجفان الوسن
وصدى النجوى على أفق الربا يزفر اللفه في ليل الشجن :
أخت ما سرّ الشذى من زنبق حير الأدمع في جفن الزمن
فأجابتها بلحنٍ شارد رنّ فاهترّ له عطف الفن :
يا ابنة الأيكِ ويا أخت الشجى أرجُ الزنبق أنفاس الوطن !

وهذا محمود الحوت ، أحد شعراء النكبة ، يحن إلى يافا والمدن
المغصوبة الأخرى ، ويشكو أحزانه إلى الله ^(١) :

يافا، لقد جفّ دمعي فاتجبت دماً	متى أراك وهل في العمر من أمدٍ
أمسي وأصبح، والذكرى مجددة	محمولةٌ في طوايا النفس للأبد
كيف الشقيقاتُ! واشوقي لها مدناً	كأنها قطع من جنة الخلد
ما حالها اليوم يا يافا، وهل نعمت	من بعد أن سَأمتُ أمساً يداً بيد
وكيف من قد تبقى في مراتبها	وقد تركناه فيها تركٌ مُلتهحد!
ما بال قلبي إذا ماسرتُ من بلدٍ	يصيح من وجدته في الصدر والبدن
مهما استقام له من عيشة رغدٍ	وجدته هازناً بالعيشة الرغد
تعبت لكنني مازلتُ في تعبي	أشكو إلى الله لا أشكو إلى أحد!

وفي عيني إحدى اللاجئات قرأ الشاعر الفلسطيني كمال ناصر أسطورة
الضياع ^(٢) :

عيناك خيمتان ترويان أسطورة الضياع في الزمان

(١) - المهزلة العربية : ص ٣٠

(٢) - جراح تغني : ص ٦٨ - ٧٠

وتعمقان في دجى الحرمانِ وتُصلبان في ذرى المكان
على أديم الهجر والنسيان !

عيناك خيمتان للعذابِ تطل منهما رؤى المصابِ
جريمة التاريخ والأحقاب وغفلة الأصحاب والأحاب
في موكب النزال والغلابِ

عيناك خيمتان للصراعِ مغموستان في دم الجياعِ
لحن كئيب موحش الإيقاع تعزفه قيثارة الأوجاعِ
تروي لنا أسطورة الضياعِ

وأنت يا صاحبة العيونِ في غمرة الأشجان إن تكوني
لاجئةً .. ظلي على يقيني يالجنةً سوداء في جيبني
ودمعةً للحقد في جفوني الخيمتان بعض ما يُشقيني
في وجهك المورق الحزينِ إذ تصرخان للربا : ارجعوني
للشاطئ المعذب الطعين 'لحلم' شاخ على ظنوني !!

— ٢٣ —

وللشاعرة الفلسطينية المجددة سلمي الخضراء الجيوسي قصيدة
أسمتها « الشهيد المهجور » رسمت فيها صورة رهيبة للقبر الكبير فوق
تل قرية (دير ياسين) الذي دُفن فيه القتلى دفناً جماعياً ، بعد أن ذبح

— ١٥٢ —

اليهود أهل القرية سنة ١٩٤٧ في مجزرة وحشية لم ينبج منها
إلا القليلون^(١) :

رعته الشمسُ والأنداءُ وارتاحت على كبرٍ بقاياهُ
ونامت دون يوم الحزن عيناهُ
وكنا يوم بعناهُ
— لريح الغرب تلفح رأسه العاري
لو قد الشمس تحرقه
وتغرقه

بموج لهيبها الناري
لغربان السماء السود تدفن جوعها فيه
لديدان الثرى القاسي تُعريه —
فلول الجحفل الوهمي في صرح هدمناه

. . .

ألن ترتاح في قبرٍ بقايا النائم العُريان؟
بقايا الهيكل المهجور في الوديان
في دوامة الأرياح ؟
ألن ترتاح في قبرٍ بقاياهُ
لقد صنّاه في أكفان ماضينا

(١) — العودة من النبع الخالم : ص ٦٨ - ٧٤ .

لقد بعناه : لا أجر ولا أرباح
يوم تجارة الأرواح
عكاظُ الروع عن دنياه يلهينا
. . .

سرى من « حفرة القتلى على تلٍ ثكلناه »
نداءُ حام في الأجواء
فوق مدافن الأحياء
يناديننا

ينادي الموت ، ذاك السارق المعطاء
أرن ينزح عن مرقى أمانينا
فإنا قد بلوناه

رضعنا سكره النعسان
وذقنا سمة الأصفر إذ يندى على الأجفان
وإذ يغتال نجم الشوق غيلاً من ليالينا
فياغول الليالي السود ، ياديحورها السكران
رعاك الموت في واديه .. عرج دون واديننا !
. . .

تدوم لجّة الأصداء تحت السمع والبصر
تهزّ العدم المراتح في أرجوحة القدر

لتوقظ في حنايانا
شموس الغيب والأنواء
لتنشل روح موتانا
من الغيوبة الصفراء
وتنفض شوقنا ناراً وطوفانا
برغم الموت .. والأغلال .. والسل
لنحفر دربنا القاسي إلى « كهفٍ على التَّل »
نلمَّ عظام موتانا !

— ٢٤ —

وللشاعرة السيدة عزيزة هارون هذه اللوحة التي تصور فيها أمّاً
(فلسطينية نازحة وولدها)^(١) :

لا وحق الحب لن أخلف عهدا
وحنيني رفّ ريجاناً ووردا
أنا للتأّر وللطفل المفدى
فارسي في حومة الحرب تردّي
إنه للغمرة الحمراء يُهدى

(١) - مجلة الآداب : العدد ٥ ، السنة ٤ ، مايو ١٩٥٦

ولدي بين اليتامى وغداً يشد زندا
 قال يوماً لرفاق الصف : إني أتحدى !
 إن أُمي صقلتني وأعدتني فرندا
 أنا للثأر ولن أخلف عهدا
 ألف بركان بقلبي ليس يهدا
 إنما الظالم في الدار استبدا
 أنا لأعرف يافا بلدي ، بالروح تُفدى
 إنها في قلب أُمي عبت طيباً ونداً
 وهيام في مداه الطلق لا يعرف حدا
 وهي في مقلة أُمي بحنان الحب تندى
 واجي يأم بالروح يُودى
 عربي كأبي أقتحم الساحات فردا ..

— ٢٥ —

عندما استغاثت فلسطين ودعا الداعي إلى الجهاد كان الشاعر
 الأستاذ عمر بهاء الأميري في جملة من لبوا النداء وانضموا إلى جيش
 الإنقاذ، ليردوا العدوان على الأرض المقدسة^(١) :
 يا فلسطين ياتراث النبوة^{*} يا لسان المجد الأثيل المفوة^{*}

(١) — المختارات من شعر الأميري نقلتها من بعض دواوينه المخطوطة
 التي تكرر بم إطلاعي عليها .

لا يضرك العدوان مهما تمدى إن هذا العدوان مبعث قوه
أمة العرب في ركابك هبت تلقم العاتي الزنيم عتوه
والأباة الكمات تهتز ثاراً كلما معرج الرسول تأوه
فافقتي البغي في عيون ذويه سوف يحميك يعربي المروه
وقد أتيح للشاعر السوري المجاهد أن يشهد بعينه طرفاً من أهوال
النكبة بعد انسحاب الجيش العربي الغادر وتشرذ الفلسطينيين أمام
زحف اليهود :

الشيخو القانون عضوا بقايا من جراح الجهاد هاجت ضراما
ورجال الكفاح ثاروا غضاباً عزلاً يطلبون موتاً زواما
والصغار الباكون غصوا بمزج الد م والدمع ثم ماتوا يتامى
في فلسطين يالقومي رزايا هل عمينا عن ذاك أم تتعامى
والحكومات وهي سبع عجاف قد أعدت للذود عنها .. كلاما !

- ٢٦ -

« قصة راشيل شوارز نبرغ » قصيدة جميلة للشاعر نزار قباني ،
كتبها للأجيال المقبلة وأعلن فيها الثورة على الجيل الذي أسهم في
ضياع فلسطين ^(١) :
أكتب للصغار

(١) - قصائد من نزار قباني : ص ١٧٨ - ١٨٧

للعرب الصغار حيث يوجدون
 لهم على اختلاف اللون والأعمار والعيون
 أكتب للذين سوف يولدون
 لهم أنا أكتب للصغار
 لأعين يركض في أحداقها النهار
 أكتب باختصار
 قصة إرهابية مجتذبة
 يدعونها « راشيل »
 قضت سنين الحرب في زنزاة منفردة
 كالجُرُذ .. في زنزاة منفردة ..
 شيدتها الألمان في براغ
 كان أبوها قذراً من أقذر اليهود ..
 يزور النقود ..
 وهي تدير منزلاً للفحش في براغ
 يقصده الجنود ..
 وآلت الحرب إلى ختام
 وأعلن السلام
 ووقع الكبار
 أربعة يلقبون أنفسهم كبار

صك وجود الأمم المتحدة
.. وأبحرت من شرق أوروبا مع الصباح
سفينة تلغنها الرياح
وجهتها الجنوب
تغص بالجرذان والطاعون واليهود
كانوا خليطاً من سقطة الشعوب
من غرب بولندا ،
من النمسا ،
من استمبول .. من براغ
من آخر الأرض .. من السعير
جاءوا إلى موطننا الصغير
موطننا المسلم الصغير
فلطخوا ترابنا
وأعدموا نساءنا
ويتموا أطفالنا
ولا تزال الأمم المتحدة ..
ولم يزل ميثاقها الخطير
يبحث في حرية الشعوب
وحق تقرير المصير

والمثل المجردة ..
فليذكر الصغار
العربُ الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم ومن سيولدون
قصة إرهابية مجنده
يدعوها « راشيل »
حلت محل أمي الممددة
في أرض يبارتنا الخضراء في الخليل
أمي أنا الذبيحة المستشهد
وليذكر الصغار
حكاية الأرض التي ضيعها الكبار
والأمم المتحدة ..

...

أكتب للصغار
قصة بئر السبع ، والطورون ، والجليل
وأختي القتيل
هناك ، في يبارة الليمون ، أختي القتيل
هل يذكر الليمون في الرملة ، في اللد ، وفي الخليل
أختي التي علقها اليهود في الأصيل

من شعرها الطويل
أختي أنا نُوار ..
أختي أنا الهتيكة الإزار
على ربا الرملة والجليل
أختي التي ما زال جرحها الطليل
ما زال بانتظار
نهارَ ثارٍ واحدًا ، نهارَ ثارٍ
على يد الصغار
جيلٍ فدائيٍ من الصغار
يعرفُ عن نُوار ..
وشعرها الطويل ..
وقبرها الضائع في القفار ..
أكثرُ مما يعرف الكبار !
...

أكتب للصغار
أكتبُ عن يافا وعن مرفئها القديم
عن بقعةٍ غاليةٍ الحجارة
يضيء برتقالها كخيمة النجوم
تضم قبر والدي وإخوتي الصغار

هل تعرفون والدي وإخوتي الصغار ؟

إذ كان في يافا لنا حديقة ودار ..

يلفها النعيم

وكان والدي الرحيم

مزارعاً شيخاً ، يحب الشمس والتراب

والله .. والزيتون والكروم ..

كان يحب زوجه

ويته

والشجر المثقل بالنجوم

.. وجاء أغراب مع الغياب

من شرق أوربا .. ومن غياهب السجون

جاءوا كفوج جائع من الذئاب

فأتلفوا الثمار

وكسروا الغصون

وأشعلوا النيران في بيادر النجوم

والخسة الأطفال في وجوم

والليل في وجوم

واشتعلت في والدي كرامة التراب

فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيم

لن تسلبوا أرضي يا سلالة الكلاب !
.. ومات والدي الرحيم
بطلقة سددها كلب من الكلاب
عليه ، مات والدي العظيم
في الموطن العظيم
وكفه مشدودة شداً إلى التراب
فليذكر الصغار
العرب الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم ومن سيولدون
ما قيمة التراب
لأن في انتظارهم
معركة التراب ! ..

- ٢٧ -

للشاعر المهندس على محمود طه قصيدة حماسية يهيب فيها بكل فتي
عربي أن يحمل السلاح ويخوض المعركة لإنقاذ الأرض المقدسة^(١) :
أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدى

(١) - الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث : ص ١٠٣ - ١٠٤

أتركهم يغضبون العروب
وليسوا بغير صليل السيوف
فجرد حسامك من غمده
أخي أيها العربي الأبي
أخي أقبل الشرق في أمة
أخي إن في القدس اختاً لنا
صبرنا على غدرهم قادرين
طلعنا عليهم طلوع المنون
أخي قم إلى قبلة المشرقين
يسوع الشهيد على أرضها
أخي إن جرى في ثراها دمي
ففتش على مهجة حرة
وقبل شهيداً على أرضها
فلسطين يفدي حماك الشباب
فلسطين تحميك منا الصدور
ة مجد الأبوة والسوددا
يحيون صوتاً لنا أو صدى
فليس له بعد أن يغمدنا
أرى اليوم موعدنا لا الغدا
ترد الضلال وتحي الهدى
أعد لها الذابجون الممدى
وكنا لهم قدراً مرصدا
فطاروا هباءً وطاروا سدى
لنحمي الكنيسة والمسجدا
يعانق في جيشه أحدا
وأطبقت فوق حصاها اليدا
أبت أن يمر عليها العدا
دعا باسمها الله واستشهدا
وجل الفدائي والمفتدى
فأما الحياة وإما الردى

— ٢٨ —

ولدكتور أحمد زكي أبي شادي قصيدة سماها (اللاجئون) تحدث

فيها عام ١٩٤٩ عن نكبة المشردين ودعا العرب إلى بذل التضحيات لهم^(١) :
 'خرس فمن عن ويلهم يتكلم؟' ومعدّيون لهم 'تقام جهنم'
 جنت السياسة مثلما جنت الوغى والظالمون الغاشمون عليهم
 وتشردوا لا يماكون وجودهم لو كان 'يمتلك الوجود المبهم'
 ضاعت معاقلمهم، وضاعت قبلها أمم ، وهان معزّز ومنعم
 ليس المقام مقام لومٍ شاملٍ ولعل أول من 'يلام اللوم'
 إن المقام مقام نبلٍ سابغٍ حتى 'يغاث من الفناء المعدم'
 إن المصيبة لا مثيل لوزنها فيما روى التاريخ أو ما 'يُعلم'
 والناس.. ما للناس لم يتأثروا والأهل.. مال لأهل لم يتندّموا
 إن الكوارث مفصحات حولهم تتطأب الإنجاد حين تلغثموا
 هذا أو ان التضحيات فما لهم ضنوا بأوهى الواجبات وأحجموا
 المال مهما جلّ ليس ضريبة 'تؤبى إذا ما هان للحرّ الدم'
 وإذا تخاذلت الشعوب وأنكرت من هم عماد حياتها لو تفهم
 فمن المحال لها ، وذلك حالها بعثٌ ، ولو عاد النبي الملهم !

- ٢٩ -

وللشاعر المهجري الكبير رشيد سليم الخوري « الشاعر القروي »

(١) - من السماء : ص ١٥٤

قصيدة طويلة يسخر فيها من وعد بلفور ويدعو العرب إلى الاستعداد
للمعركة ، نقتطف منها^(١) :

الحق منك ومن وعودك أكبر	فاحسب حساب الحق بامتجبر
تعد الوعود وتقتضي إنجازها	مهيج العباد خستت يامستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن	من جيب غيرك محسناً يا بلفر
تجني على وطن المسيح مدّماً	وتذيع أنك في البلاد معمر
هنا عليك لطيفة عربية	خلناك مبتسماً وأنت مكشّر
يا عرب والثارات قد خلقت لكم	اليوم تفخر العلاء أن تتأروا
يدعوك شعبك ياصلاح الدين قم	تأبى المروءة أن تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علمتهم	قبل الرحيل فعُد إليهم يذكروا
ريكاردرس أدرى بسيفك منهم	فليسألوه لعله لا ينكروا

وعندما احتفلت جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية في سان باولو عام
١٩٣٥ بذكرى بعض شهداء فلسطين أنشد الشاعر القروي^(٢) :

ما هذا الشرق لا يبرح في	نكبات من علوج الغرب سود
أشيداً علّقوا أم جرساً	رنّ فاهتز له قلب الوجود
وسرت ألحانه مطربة	حول عرش الله أرواح الجدود
نحن قوم ففتتنا مثل	مالنفس الحرّ عنها من محيد

(١) — الأعاصير : ص ٧٢ - ٨١ .

(٢) — د : ص ١١٣ - ١١٤ .

كلما استشهد منا بطل هتف الأجداد أهلاً بالحفيد !
وفي ثورة ١٩٣٩ تشتد حملة الشاعر على الإرهاب الانكليزي في
فلسطين ويعلن أن الغرب لا يفهم غير منطق القوة ^(١) :

من أخاديع فاسق	من إعرض الحقائق
نصف مليون سارق	سارق يدري به
للسلطان المناق	في فلسطين آية
من ققام الحرائق	سُجلت في صحائف
فوهات البنادق	وتلتهن للورى
من حبال المشانق !	وروتهن ألسن
لم يقيم عذر واثق	يالثاماً بعدهم
كذبونا بصادق !	كلكم جد آفك
بأحب الطرائق	كم نشدنا سلامكم
للحليف المصادق	فأبيتهم سوى الأذى
عأقت بالمناطق	منطق الغرب في التي
كالسيول الدوافق	فأملأوا الجو وازحفوا
للقالق لاصطياد	البواريد سُددت
بالأديب الغرائق	قد صرعنا شقيكم
بالغلام المراهق !	وقهرنا كميكم

(١) — الأعراسير : ص ١١٧ - ١٢٠ .

وعندما هاجم الفاسطيون على وجوههم متشردين وخائفوا فلسطين
الشهيدة ليسكنها لصوص الشعوب أحسن الشاعر أحمد فهمي أن الأرض
قد زلزلت زلزالها^(١) :

و • زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها •
ولاحت على الأفق سحب الجلاء تشير الحروب وأهوالها •
وهامت على وجهها أمة كأن نزاع الردى غالها •
تشرّد أفرادها في البلاد وراحوا يثوث أحوالها •
وضمت فلسطين من بعد ذاك لصوص الشعوب وأنذالها •
ولكن الشاعر لا يفقد مع ذلك إيمانه بالثورة والنصر والعودة^(٢) :

حرام علينا لذيق الرقاد إذا لم نبادر إلى الثورة •
حرام علينا البقاء الكريم ونحن نعيش على المنّة •
حرام علينا الزلال القرا ح مادام فينا أخو ذلّة •
فلسطين شعبك مال الزمان بآماله الحلوة الرحبة •
وأجلّاه عن أرضه غاصب لئيم المقاصد والنيّة •
يسانده الغرب ذاك الذي هو المصدر الفرد للنكبة •

(١) — أحلام العودة : ص ٢١

(٢) — : ص ٤١ — ٤٣

فلسطين شعبك لما يزل يحنّ لطلعتك السمحة
إلى البذل ، فالبذل باب النجاح وأجر الشهيد ربا الجنة !

— ٣١ —

كلما أقبل اليوم الخامس عشر من أيار من كل سنة ثار اللاجئون
وهاجت في نفوسهم ذكرى سوداء بغیضة ، وها هو ذا الشاعر أمين
شزار يحكي لنا حكاية شهر أيار ^(١) :

هل تسمعين ؟	« هل تذكرين »
سرّ بقلبي هذه النجوى	صوت يمزق هدأة الظلمة
قد كنت أكتمه فلا أقوى	ينساب بين دياجر الخيمة
وكيف أكتّم في في الشكوى ؟	قال الصغير مناجياً أمّه :
كيف ارتحلت وعشت في بلوى ؟	« أمي الحنون !
ماذا دهي الشجرات والمأوى	ماذا - تراه - يثير أيار
حتى غدت نبأً لنا يروى ؟	في اللاجئین فإن أتى ثاروا
أمي الحنون	في وجهه وكأنه العار ؟
قال الكبار : وكانت النكبة	من أين نحن ؟ وهل لنا دار
قالوا : وكم بطل قضى نجه !	— كانت لنا — ورباً وأزهار
قالوا : وإن لنا غداً أوبه	وشاطىء مرح وأطيار ؟

(١) - المشعل الخالد : ص ٦٠ - ٦٥

«مازلت أذكر أيها الطفل الحبيب»
يوم الرحيل ..

والشمس تقذف باللهيب ،
على الجباه ، ومن بعيد :
الأفق يذخر بالنحيب ،
والبوم ينطق ، والوليد
يدعو أباه ، ولا مجيب
ظمان ، والرجل الذليل ،
والتائهون بلا دليل ،
يحتاجهم قلقٌ شديد
درب طويل ..

يفضي إلى بلد غريب !
مازلت أذكر أيها الطفل الحبيب
يافا ، وعهد هنائنا العذب الجميل
أمس القريب ..

كانت تذهب بيتنا شمسُ الأصيل
مازات أذكر ذلك البيت السعيد !
كم كنت أفرح طفلةً بين النخيل
وفي الفضاء بق الخزامى والورود

هيا ! أعدّ قواك للوثبة
كانوا ... كمن وهب الأسي قلبه
كلّ يناشد ضارعاً ربّه !
هل تذكرين؟

أماء عهد هنائنا السالف
والبرتقال وظلّه الوارف ؟
كم حدثوا ! أفصدق الواصف ؟
أماء ما لفؤادك الواجف
ينساب من خفقاته هاتف ؟
ماذا وراء حنينك اللاهف ؟
ما تكتمين ؟

...

وانهأت العبرات كالنار
تحتاج مسمعه كإعصار
تروي حكاية شهر أيار !

...

أم تحرق في دُجى الخيمة
قلبٌ تفتح ملقياً همه
يحنو على أذنين في الظلمه :

...

يلقي السلام على الدوالي، والحقول
والطير تنثر شدوها الحلوالطروب..
والشط تنعشه نسيات الغروب
والبحر يعزف للرُّبَا أحلى نشيد!
طفلي الحبيب ! :
يافا .. ونأيك عن رباها لن يطول
مادمت تذكر عهدا العذب الجميل!

...

« أمي الحنون »

لحن وعته مسامعُ الليل
أغفى تهدده رؤى الذل
والذكريات بمقلة الطفل
شوق دفين

ما زال يلهب دمه الجاري
شوق إلى الشجرات والدار
يجتاحه .. وحديث أيار
ما زال يدفعه إلى الثار ،
ناجاه طيف بلاده الساري
في خيمة نبتت من العار :

« عبر القرون »

حَدَقْ ! فإن سناء ماضينا
قد عاد يسطع في مآقينا
يمحو الدياجر عن رواينا
قد عاد يسكب في بوادينا
لحن الإباء .. هنا ينادينا
أنصت إليه مؤذناً فينا :
يا حاثرون !

من للعرين ؟ وأهله الصيدُ
هانوا ، وشتَّتْهم رعاديدُ
عن أرضهم ، ولشدَّ مانودوا
في كل راية أغاريدُ
تدعوهم ، وتردد البيدُ :
هيا انهضوا وإلى الحمى عودوا ،

...

طفلٌ وأغنيةٌ وأزهارُ
يا فابكت ، وتغنت الدارُ
عاد الصحابُ ! وعاد أيار !

ونُختم هذه المنتخبات بقصيدة للشاعر سليمان العيسى يقصر فيها قصة « رسالة مؤرقة » تلقاها « من لاجئة » في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٦٠ ، وفيها تعبير حيّ عن القلق الذي بدأ يجتاح النفس العربية من جديد ، بعد أن طال انتظارها بزوغ الفجر الموعود^(١) :

« عائدون ..

عائدون ..

إننا لعائدون .. »

هُدُرٌ يَضْجُ بِمَسْمَعِي وَنَدَاءُ	وُخْطَا تُجْرَ وَشَارِعَ وَضَاءُ
وَمَوَاكِبُ أَلْفِ الطَّرِيقِ ذَهَابُهَا	وَأَيَّابُهَا ، وَالرَّيْحُ وَالضُّوْضَاءُ
وَالهَاتِفُونَ حَنَاجِرَ بَيْسِ الْهَوَى	فِيهَا وَمَاتَ الْحُبُّ فِيهِ زُقَاءُ
كَالِدَوْحَةٍ انْطَلَقَتْ تَمْدُّ فُرُوعَهَا	فِي الْأَفْقِ ، حِينَ مَضَى يَجْفُ الْمَاءُ
هُدُرٌ يَضْجُ .. وَفِي فُؤَادِي هِدَاةٌ	مَذْبُوحَةٌ ، وَسَكِينَةٌ بِلَهَاءِ
خَرَجُوا ، وَآثَرَتِ الْفَرَارُ بَعْزَلَتِي	فَالْبَيْتَ حَوْلِي وَحِشَّةَ خَرَسَاءِ
السَّاحَةِ الْكُبْرَى تَغْصُرُ رَحَابُهَا	بِالْأَبْرِيَاءِ ، وَتَعْصَفُ الْأَصْدَاءُ
سَنَعُودُ ! حَنْجَرَةٌ تَصِيحُ ، وَهَتْفَةٌ	تَمْضِي مَعَ التَّصْفِيقِ ، فِيهِ هَبَاءُ
وَبَلَاغَةٌ رُصِفَتْ خُطَابًا سَاحِرًا	وَقَصِيدَةٌ أَلْفَاظُهَا حَمَاءُ

(١) - رسائل مؤرقة : ص ١١ - ١٨

سنعود! أسمعها وتطبق عزلي
أنا مثلهم يا شاعري عربية
أنا مثلهم، لكنني - وأقولها -
خرجوا، ولذت بغرفتي ماهزني
لم تختلج قدماي حين تحركوا
مضت السنون، ومر ألف مجتح
فإذا القبور كما وعتها محني
شبح يلوح وومضة مجنونة
ومواكب من آملين .. تلفهم
والساحة الكبرى خطيب ساحر
مضت السنون، وخيمتي ممدودة
لم تختلج قدماي يوماً، لم أسر
أرأيت كافرة بكل شعاعة
عفو الضياء... إذا أتتك رسالتي
اليوم تكتسح البروق سماءنا
ويلعلع المذياع .. فالدنيا لنا
ذكرى تثار وتنطوي فكأنها
وضريبة الوطن الشهيد تحية

فوقي وتفغر حولي الأشلاء
لمعت على مأساتها الأسماء
عن كل ماصخبوا به صماء
رعد، ولا سمرت دمي أنواء
أتلوم يآسي؟ إنني شلاء
في خاطري، وتعرت الأشياء
مدودة، والليل والصحراء
في الأفق تسحق وهجها الظالماء
في زهوهم دوامة سوداء
يطأ النجوم، ونفحة عصاء
فوقي، تقهقه حولها الأشلاء
في موكب، لم يسبني لألاء
مثلي تجود بها علي سماء
وبكل حرف غيمة ربداء
وتموج فيها العزة القعساء
وعلى خطانا تركع العليا
عبء، كذلك تسقط الأعباء
صنبت، ولافتة علت، ونداء!!

★ ★

أهم المصادر والمراجع

أ) كتب ودراسات

- ١ - إبراهيم عبد الستار : شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية - نشر نادي الإخاء العربي ، حيفا .
- ٢ - إبراهيم العريض : الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث - بيروت ١٩٥٥
- ٣ - أسماء النقيب : قضية فلسطين من خلال الشعر العربي (باستثناء شعر أبنائها) - رسالة جامعية ١٩٥٦ - ١٩٥٧ (على الآلة الكاتبة)
- ٤ - أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية - القاهرة ١٩٥٦
- ٥ - أنيس المقدسي : العوامل الفعالة في الأدب الحديث - بيروت
- ٦ - بديع حقي : التراب الحزين - بيروت ١٩٦٠
- ٧ - جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة - مصر ١٩٥٦
- ٨ - جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهجر الأميركية - بيروت ١٩٥٧
- ٩ - زكي المحاسني : إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب - القاهرة ١٩٥٥
- ١٠ - سعدي بسيسو : امراييل خيانة وجناية - حلب ١٩٥٦

- ١١ - شفيق جبوري : أنا والشعر - مصر ١٩٥٩
- ١٢ - عارف العارف : النكبة : نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود
صيدا - بيروت ١٩٥٦ ج ١
- ١٣ - عبد الله التل : مذكرات التل - مصر ١٩٤٩
- ١٤ - عبد الله عبد الدايم : القومية والإنسانية - بيروت ١٩٥٧
- ١٥ - عمر فروخ : شاعران معاصران : طوقان والشابي -
بيروت ١٩٥٤
- ١٦ - قسطنطين زريق : معنى النكبة - بيروت ١٩٤٨
- ١٧ - محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي (ترجمة بروتوكولات حكماء
صهيون) القاهرة ١٩٥١
- ١٨ - محمد مندور : قضايا جديدة في أدبنا الحديث - بيروت ١٩٥٨
- ١٩ - محمد نمر الخطيب : من أثر النكبة - دمشق ١٩٥١
- ٢٠ - منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة - القاهرة ١٩٥٣
- ٢١ - موسى العلمي : عبوة فلسطين - بيروت ١٩٤٩
- ٢٢ - نجيب صدقة : قضية فلسطين - ١٩٤٦
- ٢٣ - وليد قحاوي : النكبة والبناء - بيروت ١٩٥٦
- ٢٤ - يسار العسكري : قضية فلسطين من خلال شعر أبنائها - رسالة
جامعية : ١٩٥٣ - ١٩٥٤ (على الآلة الكاتبة)
- ٢٥ - يوسف هيكال : القضية الفلسطينية - بافا ١٩٣٧

ب (دواوين ومجموعات شعرية

- ٢٦ - ابراهيم طوقان : ديوان ابراهيم - بيروت ١٩٥٥
- ٢٧ - أحمد زكي أبو شادي : من السماء - نيويورك ١٩٤٩

- ٢٨ - أحمد فهمي : أحلام العودة - دمشق ١٩٥٧
- ٢٩ - الياس فرحات : الحريف (الجزء الثالث من ديوانه) -
سان باولو ١٩٥٤
- ٣٠ - أمين شتار : المشعل الخالد - البيرة الاُردن ١٩٥٧
- ٣١ - ايليا أبو ماضي : الحائل - بيروت مكتبة صادر (بدون تاريخ)
- ٣٢ - بشارة الخوري : الهوى والشباب - دار المعارف بصر ١٩٥٣
- ٣٣ - جورج صيدح : نبضات - باريس ١٩٥٣
- ٣٤ - " " : النوافل - بونس أيرس (الاُرجنتين) ١٩٤٧
- ٣٥ - خليل زقطان : صوت الجياح - القدس ١٩٥٣
- ٣٦ - خليل مردم بك : ديوان خليل مردم بك - دمشق ١٩٦٠
- ٣٧ - رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) : الأعاصير - صيدا ١٩٤٩
- ٣٨ - سلمى الخضراء الجيوسي : العودة من النبع الخالم - بيروت ١٩٦٠
- ٣٩ - سليمان العيسى : رسائل مؤرقة - بيروت ١٩٦٠
- ٤٠ - سمير صنبر : غداً نعود - بدون مكان ولا تاريخ
- ٤١ - شعراء جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف الاثرى : الفلسطينيين
- النجف ١٩٣٩
- ٤٢ - صلاح الدين عبدالصبور : الناس في بلادى - بيروت ١٩٥٧
- ٤٣ - عبد الرحيم محمود : ديوان عبد الرحيم محمود - طبع عام ١٩٥٨
- ٤٤ - عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) : أغنيات بلادى - دمشق ١٩٥٩
- ٤٥ - " " : المشرّد - دمشق ١٩٥٣
- ٤٦ - عبد الوهاب البياتي : أباريق مهشمة - بيروت ١٩٥٥
- ٤٧ - علي هاشم رشيد : أغاني العودة - مصر ١٩٦٠
- ٤٨ - عمر أبو ريشة : ديوان شعر - حلب ١٩٣٧
- ٤٩ - " " : مختارات - بيروت (بدون تاريخ)

- ٥٠ - عيسى الناعوري : أناشيدي - حماد (بدون تاريخ)
 ٥١ - فدوى طوقان : وجدتتها - بيروت ١٩٥٧
 ٥٢ - « « : وحدي مع الأيام - مصر ١٩٥٢
 ٥٣ - كمال ناصر : جراح تغني - بيروت ١٩٦٠
 ٥٤ - محمد العدناني : اللهب - صيدا بيروت ١٩٥٤
 ٥٥ - محمد علي الحوماني : النخيل - (بدون مكان ولا تاريخ)
 ٥٦ - محمود حسن اسماعيل : نار وأصفاد - مصر ١٩٥٩
 ٥٧ - محمود الحوت : المهزلة العربية - بغداد ١٩٥١
 ٥٨ - نزار قباني : قصائد من نزار قباني - بيروت ١٩٥٦
 ٥٩ - نسيم عريضة : الأرواح الحائرة - نيويورك ١٩٤٦
 ٦٠ - هارون هاشم رشيد : أرض الثورات - بيروت ١٩٥٩
 ٦١ - « « « : عودة الغرباء - بيروت ١٩٥٦
 ٦٢ - « « « : غزاة في خط النار - بيروت ١٩٥٧
 ٦٣ - « « « : مع الغرباء - القاهرة ١٩٥٤
 ٦٤ - يوسف الخطيب : العيون الظماء للنور - دمشق ١٩٥٥
 ٦٥ - « « : عائدون - بيروت ١٩٥٩

ج (مخطوطات شعرية

- ٦٦ - أنور العطار
 ٦٧ - حسن البحيري
 ٦٨ - عبد الرحمن الكيالي
 ٦٩ - عمر جهاد الأميري
 ٧٠ - محيي الدين الحاج عيسى

د (المجلات

- ٧١ - الآداب - تصدر في بيروت
- ٧٢ - الأدب - « « «
- ٧٣ - الثقافة - « « دمشق
- ٧٤ - الرائد العربي - تصدر في حماه
- ٧٥ - الرسالة - كانت تصدر في القاهرة
- ٧٦ - العربي - تصدر في الكويت
- ٧٧ - المسلمون - « « دمشق

★ ★

فهرس الموضوعات

الصفحة	
٥	الاهداء
١٠ - ٧	تمهيد
	دور الشعر في المعركة - جمع شعر النكبة - منهجنا في الدراسة - عملنا فاتحة لدراسة أدب النكبة .

الفصل الاول

١٧ - ١١	الدور الاول : النكبة قبل قوار التقسيم
	الجدور البعيدة للنكبة (١١) - اليهود يشتررون الانكليز (١٢) - الثورة العربية وإخفاؤها (١٣) - جهود الصهيونية ووعد بلفور (١٤) - الوكالة اليهودية وإقامة المستعمرات (١٥) - إرهابات النكبة وتخاذل العرب (١٥) - الحرب العالمية الثانية والفيلق اليهودي (١٦) - قضية فلسطين في منظمة الأمم المتحدة وقرار التقسيم (١٦) .

الفصل الثاني

٣١ - ١٨	شعر النكبة في الدور الاول
	صوت الشعر يحذر وينذر (١٨) - ابراهيم طوقان : ترجمته

(١٩) - تصوير أحداث الدور الأول للنكبة في شعره (٢٠-٢٥) -
عبد الرحيم محمود : ترجمته (٢٦) - بطولته واشتراكيته وأثرهما
في شعره (٢٧) - عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) : ترجمته
(٢٨) - نغمته على الطونة ويسارينه (٢٩-٣٠) - برهان الدين
العبوشي : اتجاهه اليميني ونموذج من شعره (٣١) - شعر النكبة
في الدور الأول يتلاقى كله على الدعوة إلى القوة والتعبئة (٣١) .

الفصل الثالث

٣٢ - ٣٩

الدور الثاني : النكبة بعد قوار التقسيم

جيش الانقاذ (٣٢) - مجزرة دير ياسين وتدفق اللاجئين (٣٣) -
الجيش العربية ترحف (٣٣) - مطامع الملوك والرؤساء (٣٤) -
التمثيلية الحربية (٣٥) - الهدنة الأولى (٣٦) - عودة الحرب ثم
إيقافها (٣٧) - ضم الضفة الغربية إلى الشرقية (٣٧) - الحصار في
الغالوجة وأثره في ثورة الجيش المصري (٣٨) - الهدنة وتجميد
الموقف (٣٩) .

الفصل الرابع

٤٠ - ٧٧

شعر النكبة في الدور الثاني

النكبة أعنف تجارب أدبنا المعاصر (٤٠) - كثرة الشعر في هذا
الدور (٤١) - الشعر يقص حكاية النكبة : ذكرى الخامس عشر
من أيار (عيسى الناعوري ٤١) - بداية المهزلة العربية (محمود
الحوث ٤٢) - تراجع جيوش الأصفار السبعة (خليل زقطان
٤٣) - اللاجئين واتهامهم بالهرب من المعركة - رد التهمة

(محمد العدناني ٤٣ وعيسى الناعوري ٤٤) - حملة على خيانات
 الملوك (أبو سلمى ٤٥) - حملة على الجامعة العربية (٤٦) - مهاجمة
 الاستعمار وأذنايه (هارون هاشم رشيد ٤٧) - مأساة اللاجئين
 المشردين بلا غوث ولا نجدة (أبو ريشة ، محيي الدين الحاج
 عيسى ، محمود الحوت ٤٨ - ٤٩) - سؤال كل لاجيء عن بلده
 وجواب الشعر (بشير قبضي ٥٠ ، هارون هاشم رشيد ، يوسف
 الخطيب ٥١) - شقاء اللاجئين وبؤسهم مادة لدواوين شعرية
 كاملة (٥٢) - تصوير آلام سكان الحيام (كاظم جواد ٥٣ ، عبد
 الوهاب البياتي ٥٣ ، بديع حقي ٥٤ ، كمال ناصر ٥٥ ، محيي الدين
 فارس وفدوى طوقان ٥٦ ، عيسى الناعوري و خليل زقطان
 ٥٧) - صورة اليأس والقلق والشك والنقمة والحقد (يوسف
 الخطيب : ترجمته وعروبيته ونماذج من شعره ٥٨ - ٦١) - الحقد
 يُوضع مع الحليب (فدوى طوقان ٦٢) - الحقد في قلب كل
 عربي (محمد بدر الدين ٦٢) - الانقلابات الشعبية وتحقيق الوحدة
 بين مصر وسورية عوامل في تخفيف حدة اليأس والنقمة والحقد
 (٦٣) - طور الايمان بالشعوب (يوسف الخطيب ، أبو سلمى ،
 خليل زقطان ٦٤) - التفاؤل والحنين الى الوطن المغصوب
 (محيي الدين الحاج عيسى وأبو سلمى ٦٥ ويوسف الخطيب ٦٦) -
 الدعوة الى النار والعودة (عيسى الناعوري و خليل زقطان
 ٦٨ و كمال ناصر ٦٩) هارون هاشم رشيد : شاعر العودة غير
 مدافع ، تجارب اللاجئين الغرباء في دواوينه ، سخريته من دعاة
 السلام (٧٠ - ٧٣) - عودة الثقة بالنفس العربية ونحدي اسرائيل
 (سمير صنبو ٧٣) - صمود غرة أمام العدوان (هارون هاشم رشيد

- (٧٥) - الأمة العربية ولدت من جديد (صلاح الدين عبد الصبور
(٧٦) - أثر النكبة في توحيد الأمة العربية (أبو سلمى ٧٧) .

الفصل الخامس

خصائص شعر النكبة

٧٨ - ٩٤

الشعر دلل على أن النكبة كارثة قومية جامعة (٧٩) - أصدق
ألحان النكبة غناها أبناء فلسطين (٨٠) - في شعر النكبة صورة
لتختلف التيارات الاجتماعية في العالم العربي (٨١) - أصفى ألحان
النكبة (٨٢) - في شعر النكبة صورة المخاض النفسي ومراحله
(٨٢ - ٨٤) - غنى العنصر العاطفي وفق العنصر الفكري
(٨٤ - ٨٥) - إهمال قيمة العنصر الأخلاقي (٨٦) - أثر النكبة
في دعم الفكرة الشعرية الملتزمة (٨٧ - ٨٩) - الثورة على التقاليد
الشعرية القديمة وأثر النكبة في صياغة الشعر الجديد ومضمونه
(٨٩ - ٩٣) - خاتمة : شعر النكبة هو لباب شعرنا المعاصر
والنكبة هي العامل الرئيسي الفعال في أدبنا المعاصر كله (٩٣ -
٩٤) .

الفصل السادس

منتخبات من ديوان النكبة

٩٥ - ١٧٣

بشارة الخوري (٩٦) - محمد مهدي الجواهري (٩٧) - عمر أبو
ريشة (٩٩) - نسب عريضة (١٠٢) - إيليا أبو ماضي (١٠٤) -
الياس فرحات (١٠٦) - جورج صيدح (١١٠) - محمد علي

الحوماشي (١١٥) - خليل مردم بك (١١٨) - شفيق جبوري (١١٩) -
 أنور العطار (١٢٠) - محمود حسن اسماعيل (١٢٣) - ابراهيم
 طوقان (١٢٥) - فدوى طوقان (١٢٩) - أبو سلمى (١٣٤) -
 يوسف الخطيب (١٣٩) - هارون هاشم رشيد (١٤١) - علي هاشم
 رشيد (١٤٤) - عيسى الناعوري (١٤٥) - حسن البجيري (١٤٨) -
 محمود الحوت (١٥١) - كمال ناصر (١٥١) - سلمى الخضراء الجيوسي
 (١٥٢) - عزيزة هارون (١٥٥) - عمر بهاء الأميري (١٥٦) - نزار قباني
 (١٥٧) - علي محمود طه (١٦٣) - أحمد زكي أبو شادي (١٦٤) -
 الشاعر القروي (١٦٥) - أحمد فهمي (١٦٨) - أمين شتار
 (١٦٩) - سليمان العيسى (١٧٢) .

١٧٨-١٧٤

أهم المصادر والمراجع

كتب ودراسات (١٧٤) - دواوين ومجموعات شعرية (١٧٥)
 - مخطوطات شعرية (١٧٧) - المجلات (١٧٨) .

١٨٣-١٧٩

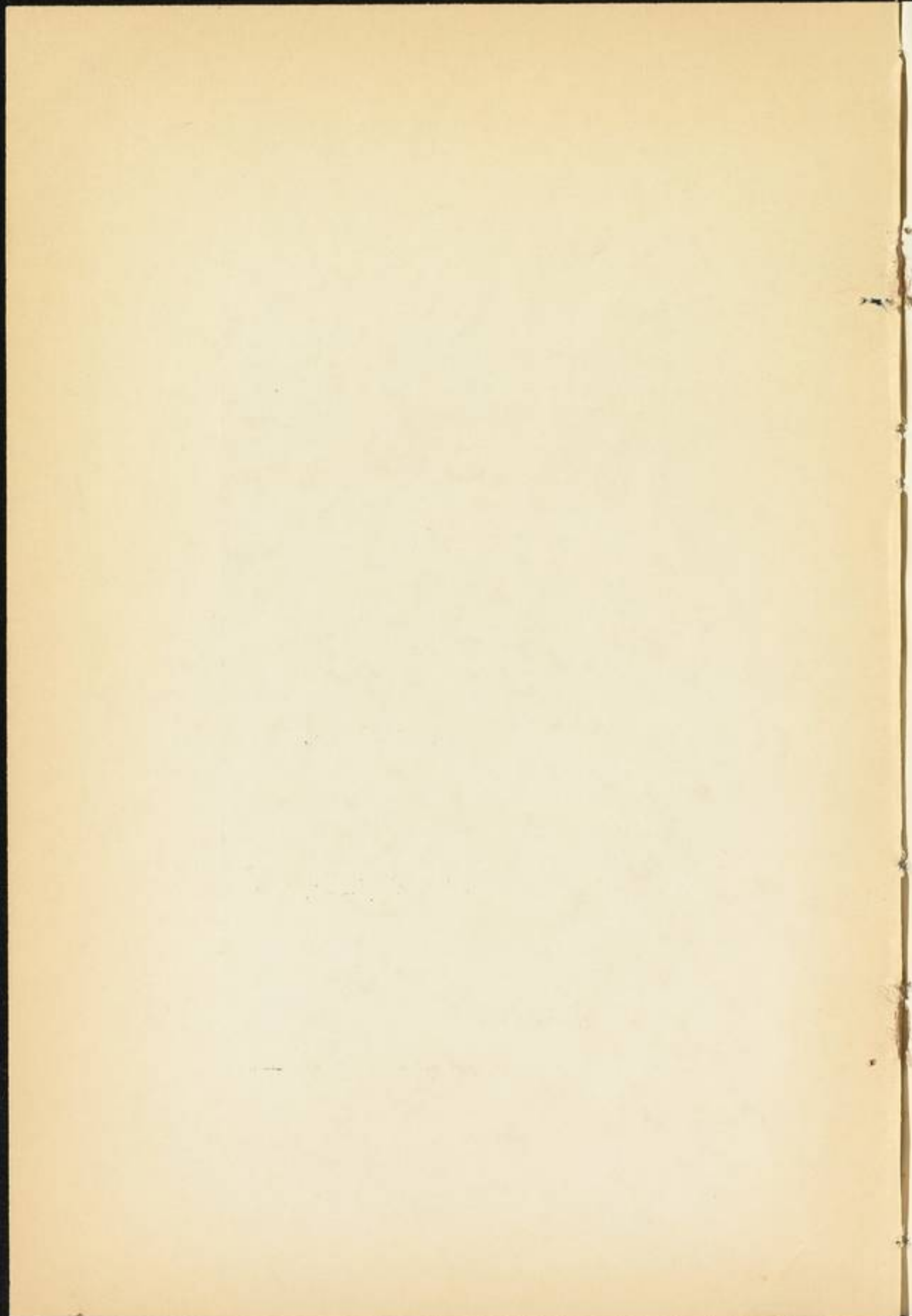
فهرس الموضوعات

★ ★

المؤلف

يشكر مدير مطبعة جامعة دمشق وموظفيها
على ما بذلوه من جهد وعناية
في طبع هذا الكتاب

تم طبع الكتاب في
١٩٦٠ / ١١ / ٢٧



للمؤلف

• اندلسيات شوقي

« بحث تطبيقي في أدب شوقي في المنفى وأثر الأندلس في شخصيته وفنه »
(مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩)

• أخبار البحري

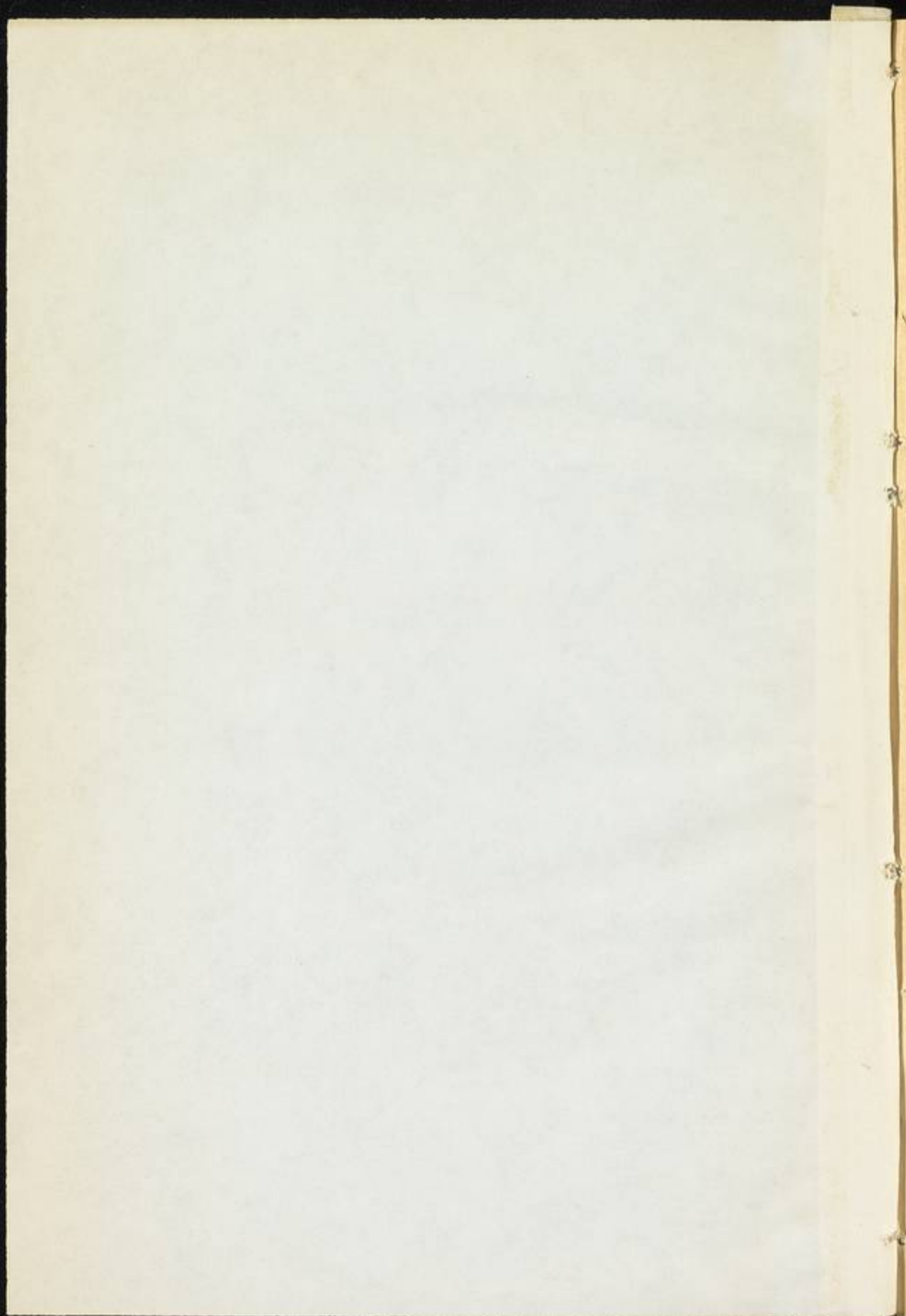
لأبي بكر الصولي
« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »
(مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨)

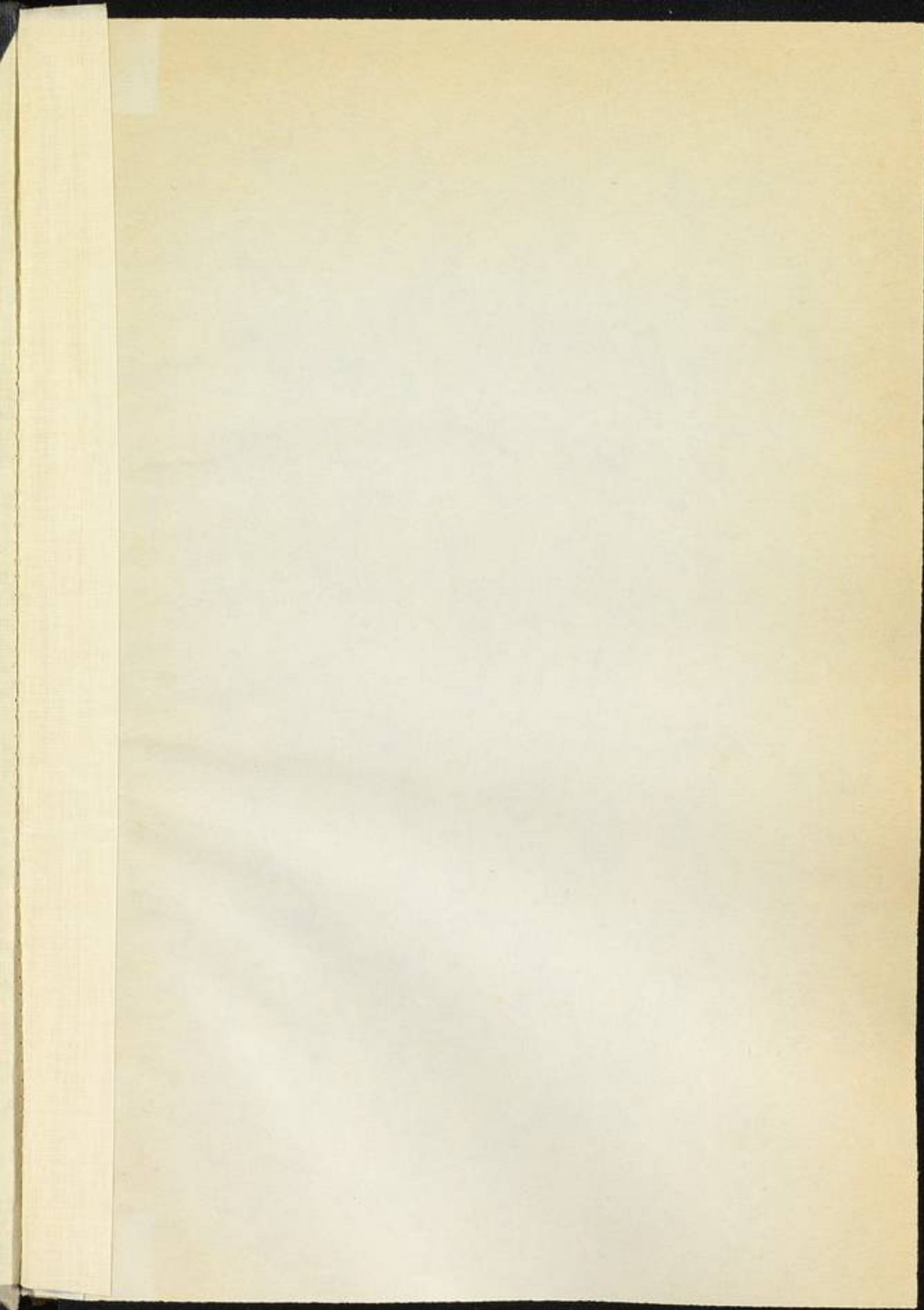
• إسلاميات

« أحاديث ومقالات »
(معد للطبع)

• إعتاب الكتاب

لأبي عبد الله بن الأبار
« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »
(معد للطبع بتكليف من المجمع العلمي بدمشق)





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 073582643